



## رؤية آن بلنت للمرأة النجدية

د. علي عفيفي علي غازي  
أكاديمي وصحفي



المرأة هي اللبنة الأولى في بناء الفلك الأسري، وهي ربه وقوامه، والأسرة هي النواة الأولى في المجتمع، وبالتالي يتوقف على المرأة المجتمع كله، فإن صلحت صلح المجتمع، وعلى هذا ففي من أعظم العوامل المؤثرة في حياة البشرية. وخطورة شأن المرأة في الاجتماع الإنساني أمرًا تواضع عليه البشر أيًا كانت درجتهم في سلم الحضارة، لأنه من أمور البداهة، وحكم من أحكام الفطرة، جاءت به الشرائع السماوية مع كل نبي ورسول لتأصله، وتحدد اتجاهه، ومساره الصحيح، الذي يليق بالإنسان، وغاياته في الوجود.

تأرجح وضع المرأة في أطوار عديدة منذ أقدم العصور، وفي الجملة كان وضعًا مثيرًا للشفقة لما حملته من امتهان، وتقليل من شأنها، فلم تكن المرأة في العصور القديمة أقل أثرًا منها في عصور ما بعد الحداثة، فالتقابل البدائية الرحالة، والجماعات التي عاشت على الصيد والقتل، والعشائر التي اتخذت من سلاحها وعضلاتها وسيلة للعيش والحياة، والضرب في مناكب الأرض، كل هؤلاء يدينون للمرأة بكثير من أمور دنياهم، فقد شاركت المرأة الرجل منذ أقدم العصور في العمل، وأخذت بضلع في كل ما يتعلق بالحياة القبلية، وحياة الأسرة، وكانت من العوامل الأولية في انتشار جماعات الإنسان في بقاع الأرض، لولا فضلها في العمل، وتديرها شؤون الأسرة؛ لتعذر على الرجل وحده أن يدب فيها، أو يكشف عنها، فكانت للرجل سلاحًا من أولى أمضى أسلحته، ودرعًا من أقوى دروعه، وحافزًا من أولى حوافزه، وكناها أن تكون أول من فكر في فلاحه الأرض، وأول من اكتشف كيف تثبت الحبة، فكان هذا بداية الحضارة الزراعية.

وتابعت المرأة خطى التطور، الذي لازم الرجل في جهاده الشاق، فإذا كان الرجل قد ضحى بالكثير من جهده العضلي والعقلي في بناء دعائم الحضارة، وتوثيق روابط المجتمع،

والبيت، ومنحها العفة حتى تجد الزوج، وفرض على زوجها معاشرتها بالمعروف، وجعلها له البيت الهادئ الساكن، ولولا قدرة المرأة العجيبة على اختيار مواقف: الكر حيث يجدي، والفر حيث يفيد، والإقدام حيث النصر، والدفاع حيث الضرورة، مدفوعة بغريزتها الطبيعية، لظل الإنسان؛ ذلك الكائن البدائي في جوروره المظلمة، وكهوفه المرطوية، وغاباته المحشدة، حيوانًا لا يفرقه عن بقية الحيوانات غير انتصاب القامة، فإذا كانت غريزة الرجل موجهة إلى العمل للحاضر، فإن غريزة المرأة تعمل للمستقبل.

وإذا قلبنا صفحات التاريخ في العصور الوسطى، حيث كان المجتمع الغربي يدين بالكسبية، وتسيطر عليه الشعائر الدينية، والمفاهيم المسيحية، لوجدنا أن المرأة الأوروبية كانت غارقة في بحار الجهل، فلم تكن واضحة الكيان، بل كانت ضحية الأزواج؛ لضعفها وقلة قدرها، ولما أعلنت الثورة في نهاية القرن الثامن عشر، حقوق الإنسان في الحرية والإخاء والمساواة؛ لم تشمل المرأة بالنصيب الحقيقي في هذه القوانين، فقد اعتبر القانون الفرنسي القاصرات هم: الصبي والمرأة، وفي إنجلترا كانت النساء، حتى عام 1850، غير معدودات من المواطنين، ولم يكن لهن حق التملك، وعانت المرأة الغربية من العنف الزوجي، معاناة شديدة مع تقدم الحضارة، والمدنية، والحداثة، والعولمة.

لكن الوضع كان جد مختلف في الإسلام، فبنوره، ويهدي نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، منحها الحقوق والواجبات، والمكانة العالية العظيمة، لأنها محور البيت، ومربية الأجيال، فقد كفل المساواة بين الرجل والمرأة في الجنس والحقوق الإنسانية، ولم يقر التفاضل إلا في بعض الأمور الخاصة بالاستعداد والخبرة والتبعية، مما لا يؤثر على حقيقة الوضع الإنساني للجنسين، فالرجل والمرأة من الناحية الدينية والروحية متساويان. قال تعالى "فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى بعضهم من بعض" (آل عمران: آية 195)، فأعطاهما الإسلام الحق في التعليم، وجعلها مسؤولة عن الزوج والأولاد

وساهم الرحالة بدور كبير في رسم تلك الصورة، أحيانًا عن قصد لأجل استمرار تشويه صورة المرأة العربية المسلمة، وأحيانًا أخرى عن جهل بالعادات والتقاليد الشرقية الإسلامية، فخرجت صورة المرأة الشرقية عامة، والعربية خاصة، مشوهة، مقطوعة عن المجتمع الذي تعيش فيه، فتصرت دور المرأة فيه، على تحقيق لذات وشهوات الرجل، لتأكيد الصورة والأسطورة التي تقدم الشرق شهوانيًا، عنيفًا، همجيًا، غير قابل لاستيعاب الحضارة الغربية، والتي لعبت ترجمات كتاب "الف ليلة ويلة" فيها دورًا كبيرًا.

وبما أن الرحالة قد جُبلوا على المبالغة، وعدم تحري الحقائق، والبحث والتقيب الدقيق عنها، رغم تكبدهم مشاق السفر، غير هيايين، ولا مبالين بالمخاطرة بأنفسهم ونفائسهم، ولا يألون جهدًا في السعي وراء ضالتهم المنشودة، ومع حرصهم على تدوين الحقائق، فإنهم يخطئون في بعض ما يكتبون، ربما بسبب مبالغة مصدر معلوماتهم، حتى جاءت أضعاف الأضعاف من الحقيقة، وقد يعذرهم المنصف العارف بعبادات الشرقيين وأخلاقهم، لأن ثمة سرًا لا يقدر سؤالا، يوجهه إلى العربي مستفسرًا عن عمل رآه يعمل، فلا يجيبه إلا بعكس ما سأله؛ ظنًا منه أنه إذا أوهمه بالجواب، وأضله بالكلام، لا يحصل منه على نتيجة، فيرجع حينئذ بخفي حنين، فإذا سمع الرحالة هذا الجواب، دونه في ديوان رحلته، وجعله غايته، وأخذ بعدئذ يعلق عليه، ويفسر ويوضح له، ظنًا منه أن ما روي له ليس إلا الصحيح، لما تعود من صدق اللهجة.

وهدفنا هنا هو تقديم رؤية الرحالة البريطانية الليدي آن بلنت، للمرأة في نجد، كنموذج للرحالة الغربي المعتدل في رؤيته، نجح في اختراق ذلك المكان المغلق، مكن الأسرار لدى الغربي، ومنهل اللذات والمتع لدى الشرقي، من خلال رحلتها المعنونة "رحلة إلى نجد مهد العشائر العربية"، والمنشورة عن دار المدى للثقافة والنشر بدمشق، سنة 2005، مكتفين بالإشارة عقب الاقتباس لرقم الصفحة بين قوسين. لترصد بعينها حقيقة ما رأته، ولمسته، ووصفته، بعيدًا عن نظرتها التعصبية التهكمية اللاذعة، التي تبدو في بعض الكلمات من سبيل: "الحكم الاستبدادي"، و"السلطة العليا"، واصفة الدور الذي يمارسه الرجل من القوامة في المجتمع العربي، كما سنرى خلال مطالعتنا للأسطر القليلة القادمة.

والليدي آن بلنت Ann Blunt هي حفيذة لورد بيرون Lord Byron، وزوجة الشاعر ولفريد سكاون بلنت Wilfrid Scawen Blunt، جمعهما الترحال كأديبين يعشقان الحرية، كما جمعتهما هواية الدراسات الشرقية، فتحولت الهوايات المشتركة إلى زواج، دفعهما للترحال في بوادي الشام والجزيرة العربية في رحلتين متتاليتين، كانت بلنت فيهما أول امرأة إنجليزية تعتبر البدو من بين أصدقائها، فقد أولعت

بحب الطابع البدوي، حيث بدا لها العرب بملا بسهم يمتطون سهوات جيادهم الجميلة لوحة فاتنة. راقت زوجها شتاء سنة 1877-1878 في رحلة بمنطقة الشرق الأدنى من حلب إلى بغداد، عبر الجزيرة الفراتية وبادية الشام، مخترقة ديرة قبيلتي عنزة وشمر، نشرتها في كتاب بعنوان "عشائر بدو الفرات The Bedouin Tribes of The Euphrates"، ثم في شتاء عام 1878-1879 راقتته في رحلة أخرى من دمشق إلى حائل، في شمال نجد، ومنطقة جبل شمر، كأول أوروبيين، غير متكرين، يدخلان مدينة حائل في القرن التاسع عشر، وهي الرحلة التي كتبت أحداثها في كتاب آخر بعنوان "A Pilgrimage to Nejd" وهو الذي بين أيدينا ترجمته، ونرصد من خلاله رؤيتها للمرأة النجدية.

ذهبت ليدي آن بلنت، وزوجها ويلفريد إلى حائل، على عكس كل الذين سبقوهم إليها، فقد دخل حائل كنبلاء بريطانيين في زيارة عائلات عربية نبيلة، وبينما كانت بلنت خجولة، صغيرة الحجم، تتكلم العربية الفصحى، مما جعل الناس لا يفهمونها، وهو أمر اعترفت به قائلة: "إن العربية في حائل كانت مختلفة عن أية لهجة سمعناها من قبل" (ص 250)، بينما كان زوجها الضخم الجسم يتكلم العربية باللهجة العامية، وفي حائل استقبالًا يحفه الترحيل والتكريم، فقد استقبلهما الأمير محمد بن الرشيد، الذي تقلد الحكم في إمارة جبل شمر، والذي طبق صيته الأفاق بسطوته ويطشه البالغين، فكانت وزوجها ثالث الرحالين الغربيين الذين زاروا حائل بعد وليم بالجريف عام 1862، وتشارلز داوتي عام 1877. وبقيت آن وزوجها أسبوعين في حائل، ثم غادراها مع قافلة الحجاج الإيرانيين العائدين إلى بلادهم، وكتبت بلنت عن حائل تقول: "بالرغم من سحرها وسكانها الممتعين باتت سجنًا لنا" (ص 310).

ولم تكن مهمة بلنت وزوجها في الجزيرة العربية مهمة إمبريالية، كما أنه لم تدعمهما جمعية بريطانية، بأي شكل، ورغم ذلك أكدت بلنت بين سطور كتابها على انتمائها ومشايعتها للإمبراطورية البريطانية، وتقدم أجزاء الكتاب، وصفًا للعرب من وجهة نظر بريطانية خالصة، وليس من وجهة نظر موضوعية مستقلة من مراقب محايد، إلا أننا يمكن أن نصفها بالمعتدلة، فقد تضمنت كتاباتها بجانب الطبيعة السيئة في الناس، الجوانب الإيجابية فيهم، وهذه النظرة تعتبر مزيجًا من رؤيتها الشخصية عن العرب، ووصفها الموضوعي لجغرافية أرضهم.

ولا توحى أفكار بلنت عن المرأة العربية بأي فهم متعمق للثقافة العربية، والقيم الإسلامية، فكانت تعتقد دومًا أن المرأة العربية جارية لزوجها، متأثرة بالفكرة التي شاعت إبان العصر الفيكتوري عن الخلاعة الجنسية للمرأة العربية، بما قرأته في حواشي ترجمات كتاب ألف ليلة ويلة عن المرأة الشرقية، تلك الكتابات التي تمثلها شيئًا مملوكًا، وأداة جنسية لا ترقى إلى منزلة الزوجة أبدًا، علاوة على النظرة

التقليدية للمرأة الشرقية كمخلوق وضع، فقد كانت ترى أن المرأة العربية وضيفة من ناحيتين: كونها امرأة، وكونها شرقية، فالمرأة العربية، التي تخفق، من وجهة نظرها، في إرضاء الزوج تستبدل فوراً كما يستبدل الخدم، رغم ذلك لا نعدم في كتابها مناصرتها للمرأة العربية، والدفاع عنها في بعض المواضع.

رغم إشارة كثير من الرحالة إلى أن المرأة البدوية سافرة مع غطاء الشعر التقليدي، وأنها تخالط الرجل في حرية تامة، وتساfer وحدها لا يمنعها من ذلك سوى شرط الأمان في الطريق، وتمارس دور كبير في القبيلة، فإن الليدي أن بلنت تستثني النساء في نجد من هذه القاعدة، فهن منتقبات، ويسمح فقط لشخص من أقارب العريس في حالة الخطوبة برؤية المخطوبة، فتقول: "عند آل العروق هنا تبقى الزوجات والبنات منتقبات، وهي عادة أهل نجد، التي تختلف فيها عن البدو، ولكن في المناسبات الهامة كترتيب للزواج، يُسمح لشخص من الأقارب برؤية ما يحدث، ونقل الأخبار". (ص 168، 169).

وخلافاً لرحالة العصر الفيكتوري، كانت بلنت متعاطفة مع الإسلام، ومعتبرة أنه دين سماوي يعمل لخير الإنسانية، ولذا كان موقفها من العرب أشد سماحة من موقف مواطنيها كتاب الرحلات، فقد رأت أن العرب يناظرون مواطنيها من الأستقراطيين، وأنهم نبلاء الصحراء، فكانت الاستثناء الذي لم يبد العداء الأوروبي الموروث للشرق، والخوف منه، لقد رأت بلنت أن الدين حاضرًا في مخدع النساء فقد لفت انتباهها أداء النسوة للصلاة في مخدعهن، والذي كان يطلق عليه "الحرم"، فتقول: "سُمع النداء لصلاة الظهر، فرجتني مضيفتي (زوجة محمد بن الرشيد) أن أعذرها، وأضافت: "أريد أن أصلي"، عندها نهضت، ونهض الجميع لأداء الصلاة في منتصف الغرفة". (ص 263).

وتميزت المرأة العربية عامة، والنجدية خاصة بالحياء، وهو من الأمور التي حض عليها الإسلام، ولفت هذا الأمر انتباه أن بلنت، ولكنها اعتبرته رديًا من الوقاحة، فعندما ذهبت لزيارة زوجات وبنات تركي آل العروق في الجوف، ودلفت إلى منزله الذي تصفه بأنه مكان متواضع جدًا، تعبق به رائحة الماعز، وبدت غرفة الاستقبال به كزربية، تابعت قائلة: "لما بدأت عينياني تعتادان الضوء الخافت تبينت شابة، هي إحدى الثلاث اللائي أتيت لزيارتهم. كانت "عصر"، وهي فتاة طويلة جميلة، تشبه ابن عمها عربيي بأنفها المعقوف، وعينيها السوداوين. تقدمت إلى النور بحياء وارتباك شديد، وهي تخفي وجهها بيديها، وأخذت تتحول عني، ولا تستجيب لمحاولاتي في التحدث معها، وفجأة انطلقت مبتعدة عبر الباحة إلى حجيصة صغيرة أخرى، حيث وجدناها مع أمها وأختها مطره. لم أفهم سبب تصرفها، إذا كان واضحًا، بالإضافة إلى خجلها، أنها قد تمدت الوقاحة، وزاد في تأكيد ذلك التصرفات المهذبة لوالدها "حلية"،

وأختها الصغرى "مطره". (ص 169).

وقد صححت أن بلنت الفكرة الخاطئة التي كانت سائدة لدى الأوروبيين لقرون عديدة والتي تقول: إن المسلمين يعتقدون أن المرأة عديمة الإحساس، فذكرت أنها تتميز بالحياء، وهذا الأدب والحياء يدفعها للقيام إذا دخل رجل عليها مجلسها تكريماً له، سواء كان هذا الرجل أبيضها أو زوجها، أم أخيها، أو أي من أقاربها المسموح لهم بالدخول إلى قسم الحرم، وقد رأت أن بلنت واقعة، قدمتها لنا على صفحات رحلتها فذكرت أنه: "قام الأمير (محمد بن الرشيد) أثناء جلوسي بزيارتين للقهوة، وفي كل مرة كانت النساء كلهن عدا عمشه، ينهضن، ويبقين واقفات إلى أن يتصرف. أما عمشه، فكانت تكتفي بحركة أو انحناء خفيفة، وتبقى في مكانها، بينما يقف زوجها قبالتها، وهو يتحدث معنا، كان يوجه معظم كلامه لي، ويتحدث بالطريقة الطائشة الصيبانية التي يفعلها أحيانًا. استعلم عن رأيي بزواجها، فيما إذا كان أجمل وأكثر سحرًا من زوجة ابن شعلان جوزة، أخت الحميدي ابن مشهور (أحد أعيان آل المشهور من الشعلان)، أو من زوجته السابقة تركية بنت جدعان، التي تركته ورجعت إلى بيت أبيها. (ص 264).

ثم تستلرد معلقة ومجيبة: "خلال الساعات الثماني والأربعين منذ وصولي إلى حائل، سألتني الأمير عدة أسئلة عن هاتين المرأتين، وقد أجبته للمرة المئة بأن تركية جميلة ولطيفة، وبأن جوزة أجمل، إلا أنها مستبدة. ولقد أصر على المقارنة بين العائلتين، ولحسن حظي، بعد رؤيتي لعمشه وهودشة ولولبة وعطوة (زوجات محمد بن الرشيد)، أستطيع القول إنهن الأجمل بما فيهن تلك المسكينة المنبوذة عطوة. كان يُظهر الضيق كلما صنفت عطوة مع الأخريات ويقول: "آه، عطوة أنا لا أريدها، إنها لا تساوي شيئًا". (ص 265).

وتواصل تعليقها قائلة: "أعترف بأنني أُخرجت من خضوعي لامتحان إبراز فضائل جوزة وتركية في حضور زوجات محمد، اللواتي كن يستمعن بعيون واسعة وباهتمام شديد. وقد زاد حرجي بعد ذهاب الأمير، عندما رشقتني عمشه بدورها بوابل من الأسئلة. فطوال فترة بقائه واصل الأمير استفهاماته، خصوصًا عن تركية، إلى أن فقدت صبري وسألته: "ولكن لم تسأل كل هذه الأسئلة؟ لم تريد أم تسمع عن تركية؟ ما الذي يعنيك من كونها جميلة أو لطيفة؟ أنك لم ترها من قبل، ويحتمل ألا تراها أبدًا". فأجاب: "لا، أنا لم أرها، ولكني أود معرفة شيء عنها، وأن أسمع رأيك بها، ربما أرغب يوماً في الزواج منها، قد أخذها بدلا من هذه الفتاة الصغيرة"، وأشار إلى عطوة "التي لن تصلح أبداً لي، فهي بلا قيمة، بلا قيمة". كانت المسكينة عطوة واقفة تستمع، ولكن على ما أعتقد، بلا مبالاة، إذ نظرت إلى وجهها، فلم تبد عليه أية ظلال من الأسف أو الحيبة". (ص 265، 266).

وما أن غادر الأمير محمد بن الرشيد القهوة، التي استقبلت فيها بلنت، إلا وأمطرتها بالأسئلة عمشة، زوجته التي تصفها بأنها "الوحيدة التي تكن مشاعر حب تجاهه"، حيث تقول: "سألتنني وهي تحبس أنفاسها: "من هي تركية هذه؟"، وفاجأتني بعدم معرفتها بها، بالرغم من معرفة من هو الحميدي ابن مشهور، شرحت لها أن أخته جوزة كانت تزوجت من سطاتم بن شعلان، وحدثتها عن قصة الزواج الثاني لسطاتم، وكيف صممت جوزة على التخلص من غريمها، فنجحت بإقلاق راحتها إلى أن رحلت، ورفضت العودة منذ ذلك الحين. كانت عمشه تهتم بالتأكيد بأمر ابن رشيد، وفكرت بأنها قد خشيت أن يدب الخلاف بدخول عنصر جديد إلى العائلة. ولكن مكانتها لم تكن لتتأثر بمجيء زوجة جديدة، وبسبب أنها أخت لحمود فمزلتها وسلطانها محفوظتان، فالأمير بضميره المذنب لم يكن ليجرؤ على التتكيل بها أو بحمود، إذ كان يدين لهما ولدعمهما له بالكثير". (ص 266).

وانتقلت أن بلنت إلى منزل آخر في نجد، يمثل نموذج آخر لمجتمع "الحرم"، ومخادع النسوة، وهو القسم المخصص للمرأة، وتخصيص مكان للحريم قديمة، صارت جزءاً من حياة العربي المسلم، كما أرادها الرسول صلى الله عليه وسلم، ففي هذا المكان تضمن الزوجات الأربع للرجل وجوازيه وبناته الأمان، وقد تمتع مجتمع الحريم بالسحر والجادبية لكونه كان مغلقاً، قبل دخول بلنت إليه، أمام كل أجنبي، وتواصل حديثها ووصفها: "غادرت منزل عمشه، وذهبت برفقة أمة سوداء إلى منزل آخر داخل القصر، ألا وهو منزل زوجة حمود (ابن عم محمد بن رشيد أمير حائل) بنية بنت متعب، وهناك شاهدت أختها رقية المتزوجة بماجد بن حمود، كما التقيت بزوجة أخرى لحمود لم تكن تعتبر نداءً، فلدني سؤال عن نسبها قيل لي: "إنها ابنة شمري"، فسألت: "ابنة من؟"، فقيل "واحد"، قلت "ولكن من هو؟"، واحد، فلان من حائل من البلد"، وبالكداعتبرت فرداً من العائلة. وكانت الزوجتان الثالثة والرابعة من الأقارب، إحدهما ابنة طلال، والأخرى ابنة سليمان خال حمود. كانت النساء الأربعة فتيات، أما أم ماجد، والتي لم أسمع اسمها يُذكر، فكانت قد توفيت منذ عدة سنوات، كان لحمود كالأمير، عدد من الزوجات، تماماً كما يسمح به القانون والشرع، وإن أية واحدة تموت أو تخفق في تحقيق الرضا تستبدل فوراً كما يستبدل الخدم.

استقبلتني بنية عند الباب، ومررنا بغرفة انتظار أو دهليز إلى قهوتها، وبعد بضعة لحظات، ولدهشتي الشديدة، أحضرت ثلاث أرائك، ووضعت في غرفة الانتظار، حيث جلست مع بنية، والزوجة الثانية، نشرب الشاي بفناجين مع صحون، وملاعق للشاي. كانت الفناجين ممتلئة إلى حافتها، وفاض الشاي بوضع قطع السكر، لكنه كان جيداً على كل حال، ثم أحضرت كومة من الليمون الحلو، وأخذت الإماء

تقشر الفواكه وتقسمها إلى أرباع ثم تمررها إلينا.

بعد تلك الوجبة الخفيفة، رغبت بنية بأن أرى غرفتها في الأعلى، التي كان يصعد إليها، كشقة عمشه الخاصة، بواسطة درج مفروش بالسجاد يبدأ من القهوة، كانت الغرفة مبنية بنفس الطراز، مع عمودين يدعمان عوارض السقف الخشبية، إلا أنها لم تكن لها إطلالة على الخارج، وكانت مضاءة بفتحتين صغيرتين في أعلى الجدار، ومع ذلك كانت أكثر إمتاعاً من غرفة عمشه، إذ كانت جدرانها مزينة بالأسلحة. (ص 266، 267).

وتقدم أن بلنت وصفاً آخر للضيافة في مخدع النساء، فذكرت أنها أثناء تواجدها فيه قد "جاءت بعض الإماء بصفحة وضعنها أمامي، وكان عليها الفطور الثقيل الاعتيادي: صحن كبير من الأرز في الوسط، وحوله أوعية صغيرة حوت أنواع مختلفة من المرقق الدسم ليؤكل مع الأرز. تعلت بنقص الشهية، وقلت بأنني قد تناولت هذا الصباح أحد الأرباب البرية، التي أرسلها الأمير. نُصحت بالطبع أن أكل المزيد، وأجبرت على المحاولة، ولكن لحسن الحظ كانت هناك أفواه كثيرة جائعة، وأعين توافة تراقب الصحون لتتمرر إليها، لذلك نجوت بسهولة". (ص 263).

أما عن وظيفة زوجات شيوخ القبائل، والأمراء، فهي الجلوس فقط، والحديث في أحاديث وصفتها أن بلنت بأنها سقيمة ومملة، وقدمت نموذجاً لها تمثل في الحوار التالي: "أنا: ماذا تعملن طوال النهار؟ زهوة: نعيش في القصر. أنا: ألا تخرجن أبداً؟ زهوة: لا، بل نبقي دائماً في القصر. أنا: إذا لا تركين الخيل أبداً كما نفعن نحن؟ (كنت أسأل دائماً عن ركوب الخيل لأرى أثر ذلك). زهوة: لا، فنحن لا نملك أفراساً لنركبها.

أنا: يا للخسارة، ألا تخرجن إلى البر خارج حائل، أعني الصحراء؟ زهوة: لا، بالطبع لا.

أنا: ولكن ماذا تفعلن لتمضية الوقت؟ زهوة: لا نفعل أي شيء، هنا قاطعنا صبي أسود قائلاً: "يا سيدتي، هؤلاء بنات الشيوخ، إنهن لا يقمن بأي عمل على الإطلاق، هل تفهمين؟". أنا: أفهم ذلك تماماً، ولكن بالإمكان تسلية النفس دون عمل، ثم التفت إلى زهوة وأضفت: ألا تتفرجين حتى على الخيول؟ زهوة: لا نحن لا نفعل شيئاً.

أنا: كنت مت لو لم أكن أفعل شيئاً. فعندما أكون في وطني يكون أول ما أفعله في الصباح هو رؤية خيولي، لكن كيف تستملن أنتن قضاء حياتكن هكذا؟ زهوة: نجلس فحسب. (ص 270، 271).

ثم تحاول تبرير ذلك الكسل الذي تعانیه المرأة النجدية قائلة: "هكذا كان مبلغ السرور لدى الحريم هنا، هو الجلوس بكسل مطلق، يبدو الأمر غريباً، إذ إن رجالهن نشيطون ومغامرون، بينما تقنع النساء بالملل، ولكن هذا باعتقادي هو نتيجة الحكم الاستبدادي". (ص 271).

وبينما كانت أن بلنت برفقة زوجها ويلفرد بلنت في طريقها

إلى نجد، خرج عليهما جماعة من الغزاة، واعتدوا عليها، ظانين أنها رجل، ولكنهم عندما اكتشفوا حقيقة أمرها بادروا بالاعتذار، لأن الشهامة العربية تقتضي ألا يعتدي البدوي على امرأة، فإن منزلتها لديهم محفوظة مكرفة، فقالت: "لقد راق لنا هؤلاء الفتيّة الرويليين، فبالرغم من سلوكهم الفظ منا رأينا عليهم سيماء النبيل. لكم شعروا بالخزي لطمعهم إياي بالرمح، فأفاضوا في الاعتذار، هذا بأنهم لم يروا سوى شخص يرتدي عباءة، فلم يشكوا لحظة في أن لابسها كان رجلاً، والواقع أن خطأهم لم يكن بمستغرب، لأن أنفاسهم كانت منقطعة، وأعصابهم مشدودة من جراء الجريان السريع، لدرجة أنهم لم يكتروا سوى بضالتهن المشدودة، أي الفرسين، لكنني أظن مع ذلك أن خسارة الفرسين كانت لهما مصدر أسف أعظم من أسفهم للمعاملة الفظة التي قابلونا بها". (ص 143).

تمتلك المرأة البدوية عامة، والنجدية خاصة، عناصر الجمال المتكاملة في ملابسها، وفيما تزين به عنقها وأذنها، فهي نبع جمال هادئ، تتحلّى بكنوز الطبيعة، والملابس البدوية تبدو مبهرة، المرأة النجدية هي التي تصنع ملابسها دون مساعدة، وتتكون من: الثوب، ويصنع من قماش أسود، ويكون من لب الجوخ، تنقشه بالحريير الملون. والخرقفة وهي عبارة عن قطعة من قماش لب الجوخ الأسود، ترتديها فوق الثوب، وتزين بخيوط الحريير، وجليان في الأسفل. والمنقب وتلبسه المرأة غطاء للوجه، ويصنع من القماش الأسود، ويزين بالإزاز ذي اللون الأبيض، وقروش البرق الخفيفة، ثم من الأسفل يزين بالرياش، وهو عبارة عن حبل من جلد الضان مشغول بحبات اللؤلؤ الصغيرة. والريش وهي عصابة توضع على الجبهة، وتلبسها البنات قبل الزواج، وتزين بالأصداق، وقروش البرق. والمقرنة التي تصنع من قماش لب الجوخ، وتزين بالأصداق واللؤلؤ، وقروش البرق، وتلبسها المرأة بعد الزواج. والرفرافة وهي قطعة قماش تلبس على الرأس عصابة، وتزين بالأصداق، وقروش البرق، وخيوط طويلة تسمى شماريخ. والحزام وتلبسه المرأة على خسرهما، ويصنع من صوف الضان الأسود والأبيض ويزين بالأصداق واللؤلؤ. والوقاة التي تصنع من القماش الأسود، والتي تلبسها البنات وتزين باللؤلؤ، والودع الكبير.

وقد وصفت أن بلنت ملابس المرأة النجدية في أكثر من موضع، فذكرت أنها عبارة عن "البسه قطنية أو صوفية زرقاء داكنة أو سوداء، والتي تستعمل من قبل نساء البدو العاديات في هذا الجزء من الجزيرة العربية، وكانت عباةاتهن محاطة بحبل أو حاشية رفيعة حمراء للترزين، وكانت تبدو جميلة.

كانت الثياب التي ارتدتها عمشه وضراثرها صعبة الوصف، لم يكن لها شكل محدد، كانت كل واحدة تلبس رداء كالعباةة، ولكنه مقفل من الأمام، ولا يلبس بإدخاله في الرأس. كان بلا حزام على الخصر، مما يجعله يبدو كالكييس. حيك

هذه الأردية من أنسجة رائعة مقصبة بالذهب والحريير، لكنها لم تكن مريحة أو جذابة، وكانت تخفي جمال القوام، كانت عمشة تلبس رداءً قرمزياً مذهبياً، والتقت حول رقبتها سلاسل كثيرة من الذهب مرصعة بالفيروز واللؤلؤ، بينما تدلى شعرها بأربع جدائل طويلة مصبوغة بمادة مائلة للاحمرار (صبغة الحناء)، وبأعلى رأسها استقرت حلية من الذهب والفيروز لها شكل طبق صغير بقطر يقرب من أربعة إنشات، كانت توضع للأمام على حافة الجبين، وتربط للخلف بسلاسل من الذهب واللؤلؤ بحلية أخرى تشبه العقصة من الذهب والفيروز معقوفة خلف الرأس، لها شراريب متدلية على جانبي الرأس والعنق، تنتهي بخيوط طويلة من اللؤلؤ، وشراريب بشكل أجراس من الذهب واللؤلؤ. أما اللآلئي فغير منتظمة، وبأحجام غير مرتبة، والفيروزات غير متساوية الحجم والشكل والنوع، بينما استخدم المرجان بشكل عام في السبحات. كانت الأجزاء المشغولة بالذهب جيدة، بعضها من فارس، والقسم الأكبر من صناعة حائل.

ولعلي قد نسيت أذكر أن الخزام الذي كان هنا أكبر مما رأيته في بغداد والمناطق الأخرى، إذ يبلغ قياسه إنشاً ونصف إلى إنشين. إنه يتألف من حلقة ذهبية رفيعة مع عقدة ذهب وفيروز معلقة بواسطة سلسلة إلى العقيصة الموصوفة آنفاً. ويُلْبَس في فتحة الأنف اليسرى، إلا أنه ينزع ويبقى متدلياً عند الأكل والشرب. إنها حلية غير مريحة، وعندما تنزع تترك في مكانها ثقباً بشعاً في الأنف أكثر إيذاءً للنظر من ثقب أذان الأوروبيين. ولكن سيدات حائل كما هن معارفي في الأماكن الأخرى يضحكن من هذه الانتقادات. فإنهن يعتبرن هذه الحلي كاللعب المفيدة ويتسلين أثناء حديثهن بنزعها ولبسها ثانية. بالإضافة إلى أن كبر حجم الخزام يدل على المكانة العالية، فيحدد قطر الدائرة مرتبة صاحبته، بينما يبقى حجم خزام من هي أدنى درجة في حدود الإنش أو أقل". (ص 261، 262).

ونستنتج من هذا أن للمرأة في ملابس مختلفة في كل مرحلة عمرية، فنوب الفتاة قبل الزواج يكون عادة مطرزاً بالألوان الخفيفة، والتي يبرز من بينها اللون الأزرق، ويكون غير كثيف التطريز، ليدل على الحياء والخجل اللذين تتصف بهما الفتاة قبل زواجها. أم ثوب المرأة المتزوجة فتبرز فيه كثافة التطريز، وبروز اللون الأحمر بشكل ملفت للأنظار، وقد يكون مطرزاً باللون الأحمر بالكامل. وثوب المرأة المتقدمة في العمر يطرز باللون الأزرق أو الأخضر، وبعض الألوان الأخرى الخفيفة، وتكون عروقه أعرض من عروق ثوب البنات، وهو يدل على الحشمة والوقار، اللذين تتميز بها المرأة الأم في مثل هذه المرحلة العمرية.

زينة المرأة النجدية إن ما تزين به النجدية أذنيها مثل الحلق المصنوع من العقيق أو الشعب المرجانية أو الذهب يتناسب مع الجمال الهادئ الذي تتسم به المرأة البدوية، وهناك مصنوعات



أن بلنت بالزي العربي

إذا أعلنت فتاة ما عدم رغبتها في الزواج من خطيبها، تعتبر غير مخطوبة، ولها أن تبحث عن الزوج الذي تحب. لكن هذا الأمر لا يتنفع، وأورد مثالا عن زواج جدعان بفتاة مخطوبة والعاقبة السيئة لذلك، وهذا يبرهن على ضرورة موافقة جروان. أخذ محمد يكرر قائلاً: "يا ابن عمي، يا جازي! كيف يمكنني أن أرتكب إثماً بحق ابن عمي؟ كيف أسلبه عروسه؟ سيكون ذلك ولا شك خزيًا لنا جميعاً". (ص 171).

وعند الدخول في تفاصيل الزفاف، بعد موافقة مجلس العائلة، انتقل الحديث إلى تفاصيل المهر، وهو ما يعطيه الرجل للمرأة من مال نقدي أو عيني لقاء زواجه منها، ويسمى أيضًا الصداق، الذي تصفه أن بلنت بأنه بدا كأنه صفقة تجارية، "وأخيرًا تم الاتفاق على الزواج من مطره، لكن مسألة "التسويات" لم تنته بسهولة بل كادت أن تحبط تمامًا. كان ولفردي بنوي دفع المهر من أجل محمد؛ لكنه لم يقل ذلك حتى انتهاء الأمور، وترك محمدًا يناقش شأن المهر، وكأنه صفقة تجارية. كان محمد ماهرًا في ذلك بالرغم من رقة قلبه، وقد دعمه عبد الله الذي نظر إلى الموضوع من زاوية تجارية بحته، إلى أن انتهى الأمر إلى مبلغ وسط بين الاثنين وانفض الاجتماع". (ص 172).

وتوضح لنا قاعدة الزواج في نجد، وهي أن زواج الابنة الكبرى يكون أولًا "فمصر، بخلفها الشرس، قد انفجرت في وجوههم وأقدتهم صوابهم فور سماعها بأمر زواج أختها قبلها، فهي تحتقر جروان بالرغم من كونه شيخ كاف، وتريد أن تتزوج شيخ تدمر، لقد أرغمت العجوز جازي على أن يتراجع عن موافقته، وكانت مطره خائفة منها. فما العمل؟ قلت لها إن المسألة لا تحتمل النقاش ثانية، وإن لم تكن، وزوجها، قادرين على السيطرة على بناتهما؛ فمن الأفضل لنا أن نبحث عن زوجة لمحمد في مكان آخر، وقد كنت أمل في عدم وقوف عصر في طريق سعادة أختها، إذ كان ذلك لن يعود عليها بفائدة.

لقد أكد سوء طبعها استحالة زواجها من محمد، فكان لابد للعائلة من البت في الأمر حالا، إذ كنا سنغادر سكاكة حينئذ، ولا بد من تسوية الأمور. قابلت بعد ذلك الفتاتين، وتحدثت إليهما بهذا السياق، وكانت النتيجة أن جاءنا محمد بعد عدة ساعات وهو مشرق المحيا يخبرنا أن عقد الزواج سيوقع في ذلك المساء". (ص 173).

ثم استمرت المساومات بشأن المهر "تم توقيع العقد أخيرًا بعد صعوبات جمة وبعد مساومات بائسة بشأن المهر اشترك فيها الجميع عدا تركي. فاستقر الأمر أخيرًا على خمسين ليرة تركية، ورفض ولفردي بفظاظة زيادة بشلك عليها، حتى ولو كان ذلك للتخلص من ابن عم لمطره ظهر على الساحة بشكل غير متوقع طالبًا بحقه في الزواج منها، عارضًا دفع المبلغ نفسه. لم تكن تلك المقايضة المادية باللائقة، والناس لدينا في إنجلترا يفعلون خيرًا بترك هذه المسائل للمحامين.

"هناك قصة أخرى أخف وطأة، تدور أحداثها حول عاشقين شابين فرا من الجوف بنية الزواج، فلاحقهما ذوهما. ولما شكبا بأنهما ملاحقان، وبغية تجنب الفضيحة، اتقيا على أنهما بدلا من أن يمضيا معًا، فضلًا أن يسيرا بخطين متوازيين يبعدا الواحد عن الآخر بمقدار مئة ياردة، وعلى هذا النحو انطلقا في رحلتها. فلما وصلا إلى أحد الأفلاج، وقد أشار لنا راضي إليه، نال منهما التعب كل مبلغ، فانطرحا كل منهما تحت شجيرة ليلاقي حنقه. وعلى هذه الشاكلة عثر عليهما، ولكن لحسن الحظ قبل فوات الأوان، وسر اختياريهما ذويهما على الجانبين، فصدرت الموافقة على زواجهما، وتم الاحتفال بعرس بهيج للغاية". (ص 198).

وعن هدف زيارتها لنجد، وهو زواج محمد بن عبد الله العروق مرافقهم ومرشدهم في البيداء، فتشير إلى أن "هدفنا الأول من زيارتهم هو إيجاد زوجة لمحمد، وبناء على طلبه اغتتمت أول فرصة سانحة للتعرف بنساء العائلة، لقد وجدتهن ودودات لطيفات وبعضهن ذكيات، وبدت معظم الشابات جميلات، أما أهم فرد بين الحريم فهي زوجة نصر، إنها سيدة مسنة قصيرة تدعى شمعة، نحيلة وذابوية، لها خصلة شعر رمادي طويلة مجمدة، وعينان ضعيفتان تتبئان بكبر سنهما. وبالرغم من عدم تجاوزها لعمر الستين بكثير فقد بدت منهكة تمامًا، إنها أم تركي وعريبي، وكنت قد سمعت من محمد أن نصر لم يتخذ غيرها زوجة، إلا أنه كان مخطئًا، ففي زيارتي الأولى لها نادت زوجة أكثر شبابًا من الغرفة المجاورة وعرفتني بها". (ص 166).

وعندما تقدم محمد لخطبة إحدى بنات العشيرة، اجتمع مجلس العائلة للمناقشة وإعطاء القرار فيه "التقى الجميع في خيمتنا برئاسة ولفردي، وجلس محمد في الجانب الأول مع نصر، كبير للعائلة، وفي الجانب الآخر جلس جازي وسعد يمثلان العروس، وفي الوسط جلس رجل قصير واهن على ركبتيه بتواضع، إنه لم يكن فردًا من العائلة بل وسيطًا بين الطرفين، أما في الخارج فقد تجمع الأصدقاء والأقرباء البعيدون، كعبد الله وإبراهيم القصير وستة رجال من أبناء العروق. جلس هؤلاء أولاً على مسافة لا بأس بها، وبعد أن حمى النقاش اقتربوا أكثر فأكثر، وأخذ كل واحد منهم يدلي برأيه". (ص 171).

وأوضح لها محمد تخوفه من أنه إذا أعلنت الفتاة عدم رغبتها في العريس فهي غير مخطوبة: "كان محمد مرتبكًا شاحبًا فتولى ولفردي الكلام في قضيته، سيطول الحديث لو ذكرت كل ما قيل، وكان النزاع يحثد أحيانًا حتى يبدو وكأن المفاوضات ستنتقطع. احتج جازي بأنه من المستحيل أن يزوج ابنته الصغرى بينما تبقى الكبيرتان دون زواج، وقال "صحيح أن حمو مخطوبة دون نقاش، لكن عصر بالرغم من خطبتها لا تزال حرة، إذا لم يكن خطيبها جروان ابن مرزوقة المهزوز الشخصية بالزوج المناسب لها، فهو أبله ولن تتزوجه عصر أبدًا".

النجدي يأتي من مجرد الحديث عن المرأة، فتقول: "لاحظت أنه (محمد بن عبد الله العروق) قد وقع في حبها، إذ أن العرب يتأثرون بأدنى الأمور، ونظرًا لعدم السماح برؤية النساء، فقد كانوا يقومون في الحب لمجرد الحديث عنهن، كان محمد يحثني على عدم إضاعة الوقت، والقيام بزيارة أمهن، فقد أعلن أنه سيتصرف وفق رأيي، وأني يجب أن أعرف إن كانت مطرة جميلة، وحسنة الخلق، وقادرة على أن تصبح زوجة صالحة، كان يحسب ويقدر المهر الذي سيطلب من أجلها بأربعين جنيهًا، إنه مبلغ ليس بالقليل، لكنها أصيلة بالفعل، والمناسبة ليست بالعادية، فهي ابنة جازي، ابنة أخي مرزوقة، ابنة عائلة كريمة، عائلة العروق، لا، أربعون جنيهًا ليست بالكثير.

لقد أوكل إلى بالحكم عليها لكوني أملك بصيرة نافذة، ونظرًا لأنني رأيت كل زوجات وبنات شيوخ العنزة، فأنا قادرة على التمييز بين الفث والسمين، ومع ذلك فقد أراد أن يرافقتني عبد الله ليحسب الأخبار، كان يُسمح لعبد الله كترتيب بالاقتراب من المنزل في مناسبة كهذه، أما محمد فلن يسمح له بذلك، اللهم إلا أن يرى الفتاة مصادفة". (ص 168).

وعن الحب والزواج في نجد، نراها تذكر أيضًا: "التقينا بعض الرعاة مع قطعانهم، وقد أرسلوا من البلدة للرعوي، بينما أخذت النساء يجتمعن الحطب. لقد أمتعنا محمد كثيرًا هذا الصباح بحديثه مع هؤلاء النسوة، فكان قد نجح بإلقاء نظرة خاطفة على عروسه المختارة، وأختها قبل الرحيل، وأخذ يتخيل نفسه واقفًا في الحب، برغم أنه لا يستطيع اتخاذ القرار بشأن من يفضل بينهما، فأحيانًا يفضل مطره، وأحيانًا أخرى يفضل الأخرى، لا لشيء سوى لأنها أطول وأكبر سنًا، ولم يكن حتى قد رأى وجهيهما.

لقد أظهر حديثه مع جامعات الحطب سذاجة في التفكير، وكان كلما رآهن يركب متوجهًا إليهن، وعند عودتنا وجدناه منغمسًا في نقاش جدي مع أكبرهن سنًا وأقبحهن بشأن أمورهم العاطفية. كان يبدو بأسؤالهن فيما لو كن من سكاكة، ثم يدير دفة الحديث إلى مدى معرفتهن بعائلة العروق. كان يسأل بشكل غير مباشر عن عدد البنات في منزل جازي، وفيما إذا كن متزوجات أم لا، ثم يقول إنه قد سمع أن أكبرهن جميلة جدًا، ويسأل بحذر عن الصغرى إلى أن ينتهي بكشف هويته، وأنه ابن العروق من تدمر، وأنه قد خطب تلك التي أحس أن النساء العجائز يفضلنها بالمواصفات.

على هذا النحو كان يزداد حيرة بين الأختين، فكان أحيانًا يتوهم أنه أسعد الرجال، وفي الأحيان الأخرى يشمر وكان المرأة، فحينما ترى المرأة مزودة بعزة النفس، ذات الفضائل الصادقة، والآداب الطاهرة، والأعمال المنزلية بدون فتور، تحكم أن هناك العمران الحقيقي، والحضارة المنشودة، وقد أسهبت في مواضع كثيرة في الحديث عن الحب والزواج والمهر، وحفل الزفاف، وأمور أخرى، فنراها تشير إلى أن الحب لدى

وتروي لنا قصة من قصص الحب والزواج في نجد قائلة:

الصحراء". ولدى ذكرنا لركوب الخيل بدت عمشه لوهلة متشككة حول رضاها بقسمتها في هذه الحياة، وقالت بأنها ترغب في رؤيتي على فرس، فوعدها بذلك إن أمكن، إلا أن الفرصة لم تسنح أبدًا، ولربما حرصت السلطة العليا على عدم حدوث ذلك. إذ إن عمشه قد أصبح متمدرة". (ص 263).

صورة المرأة النجدية

المرأة نصف المجتمع، وتربى النصف الآخر، وهي الأم والأخت والزوجة والابنة، ومصدر الحنان والعاطفة في الحياة، وقد جعلها الله سكن للزوج، وجعل بينهما مودة ورحمة، وقد رأته أن بلنت المرأة النجدية في صور ثلاث: أم، وزوجة، وابنة، واستطاعت التفريق بين معاملة الرجل النجدي لها في هذه الصور الثلاث، وقدمت وصفًا دقيقًا لنماذج لها، فأشارت إلى صورة المرأة النجدية الأولى: الأم ودورها في حياة ابنها شيخ القبيلة، موضحة أنها لبيبة حسنة التربية، مهتمة بمظهرها وزينتها، وتلعب دورًا في قيادة القبيلة، فقالت: "أما أمه (جروان شيخ قرية أثرية) فهي امرأة لبيبة حسنة التربية، ويبدو من الغريب أن يكون لها مثل هذا الابن الخامل، أما أبنائها الثلاثة الآخرون، حيث إن جروان كبير أبنائها الأربعة، فلا يتفهم شيء من النجابة كباقي الناس، لكنهم مع ذلك لا يقدمون على أخيهم البكر. أتت مرزوقة لرؤيتي الآن، ويدها طبق كبير من التمر، وتوقفت للحديث معي، كان وجهها لا يزال جذابًا، مما يدل على أنها كانت في الماضي بارعة الجمال، وقد لاحظت بأنها تلبس في أصابعها عددًا من الخواتم الفضية كخواتم الزواج". (ص 128).

وأثناء سفرها لنجد، التقت بشباب وأمهم مسافران، وكشفت لنا عن أسمى معاني البر بالوالدين، التي حض عليها الإسلام فقال: "بعد ذلك بقليل لحقنا بشباب وأمهم يسافران برفقة ثلاث ذئال في اتجاهنا ذاته، وقالا إنهما ذاهبان للبحث عن قومهما، ومكثا الليل معنا، كانا طبيبين، وكان الشاب لطيفًا مهذبًا مع أمه، جعلها تأوي إلى ظل أجمة غطاها بأقتاب الجمال، إنهما من عشيرة شمر، وكانا في مهمة عمل في حائل". (ص 330). وهكذا كانت المرأة النجدية، المرأة الصالحة، والأم الحنون، ربة منزل متوهجة النشاط تدفعها رغبة حانية للعتاء ومكابدة الصعاب من أجل زوجها وأولادها.

الصورة الثانية التي قدمتها أن بلنت للمرأة النجدية، هي الزوجة، المحبة، المشيقة، التي لا يقوم بناء مكين على أساس متين، إلا بدورها، فأساس البيت الاجتماعي، هو المرأة، فحينما ترى المرأة مزودة بعزة النفس، ذات الفضائل الصادقة، والآداب الطاهرة، والأعمال المنزلية بدون فتور، تحكم أن هناك العمران الحقيقي، والحضارة المنشودة، وقد أسهبت في مواضع كثيرة في الحديث عن الحب والزواج والمهر، وحفل الزفاف، وأمور أخرى، فنراها تشير إلى أن الحب لدى

وتنزلت تشير إلى طريقة لتهديب الشعر وتسويقه عن طريق تضييره، وكانت المناسبة عندما سألتها زوجة محمد بن رشيد "عمشه: لم لا تصنعين بشعرك مثلما أصنع؟"، وقد ناولتني إحدى ضفائرها الطويلة السمراء المشربة بالحمرة لأبدي إعجابي بها، فشرحت لها أن خصلات شعري القصيرة لا تكفي لهذا الغرض. ثم أضافت: "ولم لا ترتدين لباسًا مقصبًا بالذهب؟". فأجبت: "لا تصلح هذه الثياب الجميلة للأعمال الشاقة من سفر وصيد وركوب في

جميلة من العاج تتمثل في الحلقات والأساور، التي تزين المعصم، وفي العقود المتنوعة، إضافة إلى استخدام القواقع الصغيرة من الأساور والعقود والأقراط، وكثير من أدوات الزينة يتم توريثها للأجيال التالية؛ لأنها تتمتع بقيمة عالية ثقافيًا وماديًا، وبها مهارة في الصنعة، وعند وصف بلنت لزينة وحلي المرأة النجدية، قالت: "تصورت أن النساء هنا نادرًا ما كنا يهتمن بلباسهن، إلا إذا أردن إظهار ما لديهن من حرير ومجوهرات للزوار، وفي هذه المناسبات يبالغن في التبرج والتزين بالكحل والأصباغ الزاهية، ويستغرق ذلك وقتًا طويلاً". (ص 259).

وتحدثت كذلك عن حلي المرأة النجدية؛ حين وصفت زوجتي محمد بن رشيد، فقالت: "كان لهدوشة ولولية، الزوجتين الأخريين، ما لها (عمشة) من القماش المقصب بالذهب، والشفاة والخدود المطلية بالأحمر القرمزي والعينين المؤطرتين بالكحل، لكن كان يتقصهما ما لها من السحر والجادبية. بالإضافة إلى ذلك فإن عمشه ذكية ومسلية، وتمكنت من إبقاء الحديث دائرًا، بينما جهدت الأخريان للمشاركة فيه. لقد بدتا جميلتين، ولكنهما أبتيتا في مكانة ثانوية. ولقد شاركت لولية عمشه، كما قالت الأخيرة، فيما اعتبرته مزية، وهو عدم مغادرة البلدة، وقد نالتا بهذا الأفضلية على هدوشة التي تقع على كاهلها مسؤولية مرافقة الأمير في الصحراء حيث يمضي بعض أوقات السنة في المضارب، كان الإلزام بهذه الخدمة يعتبر منتقصًا للقدر، ولذلك كانت نساء حائل يعترضن عليه. ولم تكن لديهن تسليية، كما أخبرتني، إلا اقتناع تام بأن السعادة الحقيقية والجلال لا يتوفران إلا بالمكوث في البيت". (ص 260).

وتطرقت لوصف حلي وزينة المرأة النجدية في موضع آخر فقالت: "وهنا جاءت ابنة قوت واسمها أيضًا زهوة، جاءت مع أمة تحمل ابنها عبد الرحمن الذي يبلغ السنة من العمر. كانت زهوة جميلة ولكنها غبية ومملة كوالدها. استغرقت تمامًا في عرض صندوق حليها، الذي أرسلت خصيصًا لإحضاره وعرضه أمامي، كانت حليها من النوع الاعتيادي، حلي للرأس والذراعين والكاحلين، فيها فيروزات وحبال من اللؤلؤ. وكان أثاث الغرفة الذي أشارت هي ووالدها إليه لأبدي إعجابي به، كان يشبه ما سبق أن رأيته: صناديق بأرجل مزينة بصفائح من الفضة غير المقصولة". (ص 270).

ونراها تشير إلى طريقة لتهديب الشعر وتسويقه عن طريق تضييره، وكانت المناسبة عندما سألتها زوجة محمد بن رشيد "عمشه: لم لا تصنعين بشعرك مثلما أصنع؟"، وقد ناولتني إحدى ضفائرها الطويلة السمراء المشربة بالحمرة لأبدي إعجابي بها، فشرحت لها أن خصلات شعري القصيرة لا تكفي لهذا الغرض. ثم أضافت: "ولم لا ترتدين لباسًا مقصبًا بالذهب؟". فأجبت: "لا تصلح هذه الثياب الجميلة للأعمال الشاقة من سفر وصيد وركوب في



## القراءة في عصر الأجهزة المحمولة

كشف تقرير لليونسكو، بعنوان (القراءة في عصر الأجهزة المحمولة)، أن مئات الآلاف من الأشخاص باتوا يستخدمون التكنولوجيا المحمولة، الجوالات والأجهزة اللوحية، كوسائط لقراءة النصوص. وتشير البيانات إلى أن أعداداً كبيرة من الأشخاص الذين يعيشون في بلدان تعاني من ارتفاع معدلات الأمية ونقص حاد في المواد المطبوعة، يقرؤون نسخاً كاملة من الكتب والروايات باستخدام أجهزة بسيطة ذات شاشات صغيرة.

ويمثل التقرير أول دراسة في العالم تتطرق إلى الأشخاص الذين يطالعون الكتب وغيرها من المواد باستخدام الأجهزة المحمولة في البلدان النامية، ويقدم معلومات مفيدة عن أساليب استخدام الأجهزة المحمولة للقراءة وعن الفئات التي تتبّع هذه الممارسة. وحالياً، يقدر 774 مليوناً من الراشدين و123 مليوناً من الشباب على صعيد العالم إلى مهارات القراءة والكتابة، وغالباً ما ترتبط مشكلة الأمية بمشكلة النقص في الكتب. فعلى سبيل المثال، لا يتوافر لدى معظم سكان أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى أي كتاب من أي نوع، ولا تؤمّن مدارس هذه المنطقة كتباً للدارسين إلا في حالات نادرة.

ومع ذلك، يفيد التقرير بأن التكنولوجيات المحمولة تُستخدم بصورة متزايدة في المناطق التي تندر فيها الكتب، وحتى في الأماكن التي يعيش سكانها في فقر مدقع. وأجريت الدراسة الرائدة لليونسكو حول استخدام الأجهزة المحمولة للقراءة في سبعة بلدان نامية هي إثيوبيا وغانا والهند ونيجيريا وباكستان وأوغندا وزمبابوي. واستناداً إلى تحليل شمل أكثر من 4 000 مسح ميداني ومثل عددها من مقابلات نوعية، بيّنت الدراسة ما يلي:

- أن أعداداً كبيرة من الناس (ثلث المشاركين في الدراسة) يقرؤون قصصاً للأطفال باستخدام الهواتف المحمولة؛
- أن الإناث يستخدمن الأجهزة المحمولة للقراءة أكثر بكثير مما يفعله الذكور بست مرات؛
- أن الرجال والنساء على السواء يكتسبون قدرأ أكبر من المعلومات عندما يطالعون الكتب باستخدام الأجهزة المحمولة؛
- أن الكثير من حديثي العهد بالتعليم وشبه الأميين يستخدمون هواتفهم المحمولة للبحث عن نص يمكنهم قراءته.

والهدف من الدراسة هو توفير خارطة طريق للحكومات والمنظمات والأفراد الراغبين في استخدام التكنولوجيات المحمولة للمساعدة على نشر القراءة وتعزيز محو الأمية.



## أمة (اقرأ) لا تقرأ!

بقلم: عماد أحمد العالم

علينا أيضاً أن نستطلع موضوع الكتاب، وندرس توجه غالبية الجمهور ورغباته وأهواءه وما يثير فضوله ويستفزه، ونستوعب تطلعاته فيما قد يجذبه للقراءة، مع العمل على عدم حصر ذلك في مجال بعينه، بل نسهم في أحداث حالة من التنوع، دون التركيز على مجال على حساب آخر. هذا بالتزامن مع تاصيل مبدأ استغلال الوقت ولو قليله في القراءة أثناء الانتظار، والتربية المبكرة لأطفالنا وتعويدهم على أن متعة طفولتهم لن تكتمل لهم إلا إن قرأوا دون أن نحرمهم ملامههم الأخرى، ولكن مع أحداث موازنة إيجابية في استغلال أوقات فراغهم.

لفترة قريبة وفي أغلب مجتمعاتنا العربية، كان العديد منا ينظر باستغراب وفضول وقد يكون استهجاناً لمن يحمل كتاباً في يده أو رواية وينشغل بقراءتها عن النظر في من حوله في وسائل المواصلات العامة، أو أثناء انتظاره مثلاً لحافلة أو موعد إقلاع رحلته. نظرة أخرى وسمته ووصفته "بالمفلس" أو من يحاول أن يظهر للآخرين بشخصية المثقف، في حين وفي كل من حولنا من دول، نجد أن ثقافة النظر للآخرين أثناء الانتظار في الأماكن العامة مستهجنه، والتصرف الأبرز للأغلبية يتمثل بقراءتها ما بين يديها أياً كان محتواه.

واقفنا يشير إلى أننا من أضعف الأمم القارئة، وأطفالنا هم الأقل، والأغلبية العظمى من الرجال والنساء في العالمين العربي والإسلامي لا يمضون وقتاً يذكر في القراءة، وعادة شراء الكتب لدى العديد منا في المناسبات لا تعني أبداً أو تشير إلى تحسن مستواها الثقافية، وازدياد الوعي لدينا بضرورة وأهمية وروعة المعرفة، التي يمثل الكتاب الباب والمنفذ لها، والسبيل الأمثل لنيلها.

أعطني أمة تقرأ وسأضمن لكم تمدنها وتحضرها وتقدمها وإنسانيتها، وتخلصها من مساوئها والتزامها بالنظام والنظافة وتمتعها بالأخلاق واحترامها للقوانين، فالقراءة بجانب كونها تقيف وتسليية هي أيضاً تهذيب وسمو وتربية.

رغم ما تعودنا سماعه وترديده عن كوننا كعرب ومسلمين "أمة لا تقرأ"، أو كما دأبت النخب منا على وصفنا وترديدها ذلك حين تُسأل عن سبب ضياع المعرفة وتضائل الإنتاج الفكري والأدبي، أو لنقل كما جرت العادة أن يُطلق علينا بأننا هجرنا القراءة والكتابة والثقافة الشخصية وأصبحنا نميل لأن نكون متلقين أكثر ومرددين لا منظرين، نستقي المعلومة من المشاهدة، ويلعب الإعلام المرئي والمسموع الدور الأكبر في ثقافتنا وتوجيهنا ومعرفتنا عبر اعلام المعلومة الجاهزة لا الرأي؛ إلا أن واقع معارض الكتاب السنوية التي تطلقها وتستضيفها أغلب الدول العربية تشهد عكس ذلك وتبعث على التفاؤل، فالأرقام الصادرة عنها تشير إلى أعداد كبيرة من الزوار، من مختلف الأعمار والتوجهات. المبيعات مرتفعة، والإقبال متنوع ولا ينحصر في فئة عمرية واحدة. أعداد الناشرين كبيرة والمعروض من الإصدارات كثير. في حين نشهد وباستمرار بروز مؤلفين وكتاب جدد مغمورين وغير معروفين كسروا احتكار المشاهير من الأدباء والكتاب، وفرضوا وجودهم وأثبتوا أنفسهم في فترة قصيرة عبر ابداعات نالت الاهتمام، وأحدثت أثراً إيجابياً.

إذا أبن المشكلة، ولم دوماً نحن كعامة وجمهور محل النقد لكوننا هجرنا ثقافة القراءة واتجهنا للإعلام الترفيهي، الذي جعل منا متلقين تابعين لا أصحاب رأي وفكر وثقافة؟ وهل مثل هذه المعارض السنوية والمناسبات تمثل المقياس الدقيق لقياس درجة ثقافة القراءة لدينا، أم أنها لا تعدو أكثر من رغبة مؤقتة وحدث مستفز لعقولنا ما نلبث أن نتحاشاه بعد أن نرتب ما اقتنيناه من كتب في مكتبتنا بدون أمل للرجوع إليها والاطلاع عليها؟ وكيف نفعل حملة القراءة للجميع دون أن ندعي ذلك ونروج لها كحدث ثقافي ينتهي بانتهاء تغطيته الإعلامية؟

أتوقع قبل أن نبدأ في غرس فكر القراءة، علينا أولاً أن نروج للثقافة الشخصية ومدى أهميتها وضرورتها، عبر حملات تدغدغ "الأنا" في داخلنا وتجمل لها إنسانيتها وهي مثقفة تعي ما حولها وتسهم دوماً في نشر المعلومة وإثرائها.

"جالسه مع بنية سعد حمود وبقي لبضع دقائق فقط. كانا بيدوان منسجمين، وبعد مغادرته تحدثت كثيراً عنه، وبدت فخورة جداً به. وكانت تقول: "هذا لحمود، وهذا، وهذا"، "وهذا هو سريره"، مشيرة إلى كومة من الحشبات فوقها غطاء جميل، كان هناك بعض قطع الأثاث الأوروبي في الغرفة، كبعض المرايا الشائعة، والإطارات المطلية، وساعة ذات بندول، انضمت إلينا رقيقة، فأترتني بنية عقداً جميلاً من الذهب والمرجان كانت أختها تلبسه. قالت: "كان هذا لوالدي"، وأضافت بأن تلك الحلية جاءت من إيران.

بدأت بنية شديدة الاعتزاز بابنها عبد الله، وهو صبي جميل عمره أربعة أشهر. كانت وأختها ودودتين جداً، لدرجة أنني كنت على استعداد لأمضي معهما فترة ما بعد الظهرية. لكن كان قد حان الوقت للقيام بزيارتي التالية. وبعد الوداع والأمنيات الحارة من قبل الأختين، أمسكت دليلتي السوداء بيدي، وتقدمنا إلى شقة زوجة أخرى لحمود، وهي زهوة بنت طلال، إنها لطيفة وذكية، نحيلة وقصيرة، ولها يدان صغيرتان. كانت تلبس كباقي السيدات، خواتم في أصبعها تحتوي على فيروزات كبيرة غير منتظمة. جلسنا قرب النار وتناولنا الليمون الحلو، والليمون الحامض، وشربنا الشاي، أرسلت زهوة في طلب ابنتها البالغة من العمر تسعة أشهر لتريني إياها، فأخبرتها بأن لدي ابنة أيضاً (الوحيدة جوديث Judith ولدت عام 1873، وعرفت نسبة لزوجها باسم الليدي وينتورث Lady Wentworth)، وبأن البنات أفضل من الصبيان، مما سرها فأجابات: "نعم، البنت لأمها، والصبي ملك لأبيه". (ص 268).

ولاحظت بلنت حالة ووضع المرأة في المجتمع العربي، موضحة أن المرأة العربية تتمتع بحظ وافر من الحرية، وغالباً ما تتمتع بقدر كبير من القوة داخل أسرتها، فلم تزعم كما فعل غيرها من الرحالة أن العربيات يعاملن معاملة العبيد فقط، لقد تأثرت بلنت برويته الإسلام على أرض الواقع، أي الشعائر الدينية للعرب، وخضوعهم للشريعة، لقد أدركت أن الإسلام في عصرها قد وهن كثيراً، إلا أنه ظل هناك الكثير مما يمكنه التأثير فيه ونيل احترامه، وعن الحياة العائلية في نجد، وعلاقة الرجل النجدي بأهل بيته، وأولاده، توضح أنه يسودها البر والتواصل والتعاطف والتراحم والتقدير، فتقول: "بقينا ثلاثة أيام مع نصر وأبنائه، وزوجات أبنائه، وأطفالهن في مزرعتهم الهادئة. كانت بالنسبة لنا راحة نحن بحاجة إليها، وأضافت إلى تجاربنا شيئاً ممتعاً، وفرصة عظيمة لتتعرف أكثر على الحياة العائلية العربية". (ص 165).

"إن نصراً هو كبير العائلة الآن، أو على الأقل ذلك الفرع الذي يقطن واحات سكاكة. ويعيش في منزل مجاور لمنزل ابن عمه جازي ابن العروق، أخو صديقنا مرزوقة، وأب لابنتين جميلتين، كان هؤلاء، بالإضافة إلى أقارب آخرين، يؤلفون عائلة صغيرة هائلة تعيش معاً في مزرعتها النائية". (ص 166).

له الدعم السياسي بالإضافة إلى زيادة راحته البيئية. تلك هي أهدافه من مشروع زواجه الجديد كما استنتجت من سؤاله عن بنات شيوخ البدو الصالحات للزواج، فكلم سيناسبه الزواج من ابنة أحد شيوخ الصحراء الكبار، حيث ستصبح عائلتها حليفته في الحرب، بينما تصبح هي نفسها على عكس سيدات البلد، مستعدة دوماً لمرافقة زوجها إلى الصحراء، ولكن هل ستفضل فعلاً الصحراء على البلدة". (ص 260، 261).

وتشير إلى أمر لعله يوضح مدى تقدير الرجل لزوجته، وهو أنه قد يبارح عشيرته للإقامة معها في ديرة عشيرتها، فقد سألت عواد رفيق سفرها الممتع الذي يحمل سيما الجنتلمان، على حد وصفها له: "لم يبارح عشيرته شمر، وأتى يقيم بعيداً إلى الشمال من صلخد، فأجاب بأنه من "النصيب"، أي الأمر المقدر أنه تزوج امرأة من صلخد، فعافت هذه المرأة الابتعاد عن قومها. وسألته عما يفعل لكسب معاشه، فضحك قائلاً: "أملك نصف فرس ودلولا، وأقوم بالغزو. هناك تسعة منا نحن الشامرة في حوران، ونحن نذهب معاً تجاه الزرقا أو اللجاة الغربية، ونغنم المواشي في الليل". (ص 130).

إذا تويج الرجل فإنه يحق لزوجته أن تتزوج بأخر، دون انتظار موافقة أبنائها، حتى لو اضطرت للجوء إلى القضاء لتمكينها من حقها هذا، الأمر الذي قد يزعج أولادها، وفي هذا الإطار ذكرت قصة روتها تقول: "تزوج أحد المصاربة فتاة من عشيرة السويلمات، وما لبث أن مات عنها، فلم تمض بضعة أسابيع حتى تزوجت أرملته من جديد رجلاً من أبناء عشيرتها. وقبل موعده ولادة مولودها الأول نشب خلاف بخصوص نسب المولود، أما المرأة فأكدت نسبته لزوجها المصري، بينما تمسك السويلمات بأبوة عشيرتهم له. أحيل هذا الخلاف كغيره من الخلافات التي تشب في البادية إلى التحكيم؛ فعمد القاضي إلى اختبار صدق الأم بوضع جمرة ملتصقة على لسانها (تعرف هذه العادة بالبشعة، والقاضي بالعارفة) لكنها رغم هذه المحنة القاسية لم تتراجع عن دعوها، وكسبت الحكم لصالحها. ولكن يبدو أن الابن لم يكن راضياً بهذا الحكم، فحالما وضعت أنه التفت إليها حانقاً ومغضباً". (ص 57).

الصورة الثالثة التي قدمتها آن بلنت للمرأة النجدية، وهي كونها ابنة، وأوضحت ذلك في قصة روتها، توضح كيفية حل تناقض بين الأم والابنة، تقول: "أما قصة القصيدة فكانت بسيطة، وتروي كيف أن أم حمدان وأخته تخصصتا وتباغضتا، فرفعتا قضيتهما إلى عبيد ابن رشيد في حائل، وكيف قام الشيخ العجوز بفض النزاع بأن ربط حبلا حول عنق الابنة، وطلب إلى الأم الإمساك بطرفه، على أن تستمر على هذا النحو طوال عمريهما، عند ذلك ما كان من الابنة إلا أن اعتقت أمها وقبلتها". (ص 136)

وتوضح أمر منتشر لدى العربي، ويمثل قاعدة شعبية، تنسب البنت لأمها والصبي لأبيه، فتذكر أنها بينما كانت

والآخر في الثانية، يدعى الأكبر مطرق، وبالرغم من اسمه، فكان يبدو ودوداً ومهذباً، يشبه بذلك والدته التي أعجبت سلوكها المحترم تجاه شعمة، فضلاً عن وجهها المليح، أما مطرق، فقد سبق أن شاهدته صباحاً مع نصر العجوز في البستان، وافترضت أنه حفيده، كان نصر يُعْرط في تدليل الصبي كعادة العجائز بين العرب.

أعطيت مطرقاً كزرة حمراء صغيرة كنت قد ابتعتها لمنصور ابن سطام عندما كنا نتوي زيارة الرولة، أخذ الطفل يتبختر بين شقيقتيه الجميلتين، مظهرًا لهما لباسه الفخم، كانت أختاه تركضان إلى داخل المنزل وخارجه، طوال فترة زيارتي، وتساعدان في حمل أطباق التمر، ثم تقومان بأكله. بعد ذلك، ظهرت زوجتا تركي (كانت إحداها جميلة، والأخرى عادية)، وزوجة عريبي الجميلة التي تزوجها مؤخراً، بدأ الجميع على وفاق بخلاف ما تكون عليه الحال عادة بين الضرائر والكنات. كن توافقات لإسعادي، وبذلت بدوري كل جهدي لإرضائهن بأكل ما قدمته لي من تمور مختلفة الأنواع، منها الجاف ومنها الدبقة، منها الحلوة، والأقل حلاوة، وكان بعضها طويلاً جافاً، والبعض الآخر رطباً.

كانت شعمة تعامل الجميع بصفة من له السيادة، لكن لهجتها معهن كانت لطيفة مع ذلك، كان كلامها قليلاً، بينما لم تتوقف الأخرى عن الكلام وتوجيه كل أنواع الأسئلة، مما تطلب مني معرفة أكثر باللغة العربية حتى أجبهن.

وفي أثناء زيارتي وصلت ابنة نصر المتزوجة نصح Nazzch شقيقة تركي وعريبي، وصلت تحمل ابنتها وطبقاً كبيراً من التمر، لقد قطعت مسافة ثلاثة أميال سيراً من مدينة سكاكة، حاملة ابنتها السمينة ذات الأربع سنوات، بالإضافة إلى طبق التمر، وهي تتلهف لرؤيتي. كانت ممتلئة حيوية وسروراً، تشبه بملامحها أخاها تركي، أي أن خلالها الطيبة كانت غالبية على جمالها". (ص 167).

كان هذا حديثها عن قائد وحاكم العشيرة، ولكن الأمر لفت انتباهها عندما دخلت إلى مخدع أكثر من شيخ في نجد، فلاحظت موضوع تعدد الزوجات هذا، فنراها تشير كذلك إلى أن "زوجات حمود، كزوجات محمد، يسكن في القصر، ولكن في مساكن منفصلة. وكان القصر كبلدة بحد ذاته". (ص 259).

ولكنها توضح أن أمر تعدد الزوجات ليس هباءً منثوراً، ولكنه له هدف، فتذكر أنها بينما كانت في قصر محمد بن رشيد أمير حائل، وتجلس مع زوجته الرئيسية "عمشة" في القهوة، "دخلت فتاة صغيرة جميلة اسمها عطوة، قدمت لي بصفة الزوجة الرابعة للأمير، فجلست بعد لولية. لقد بدت لي زوجة مقبلة أكثر من كونها متزوجة بالفعل، إذ كانت فتية جداً، وبالفعل تبين أنها قد أحضرت لرؤيتها والتفكير في أمرها، وأن الأمير قد قرر رفضها لودانتها وعدم سمو منزلتها، كان في الواقع يخطط في ذمته لزواج ملامث يجلب



## محمد بنيونس - المغرب

# سلطة الوهم عند ابن عربي 1-2

### 3 - أوهام العقل

إذا كان العقل حسب ابن عربي قيد " فإن العقل قيد " يعقل الأمور بحدها وتحديدها ووضع الحدود لها حتى تعرف بماهيتها وجوهرها، لأن تحرير المعرفة أو العلم من الحدود قد يؤدي إلى التداخل وعدم إمكانية التمييز بين الحقيقة والوهم، بين الصواب والخطأ، إلا أن الأولى والأجدر أن يضع العقل حدوداً لممارسته، أي أن يمارس على ذاته ما يمارسه على غيره، إذ عليه أن يضع حدوداً لممارسته في تحديد الأشياء، وإلا فإنه قد يستقط في أوهام ميتافيزيقية، وهذا الوهم هو ما يمكن تسميته "بوهام إدراك ما لا يمكن إدراكه" أو "بوهام تصوير ما لا يمكن تصويره"، وذلك بادعاء العقل قدرته على تقييد المطلق، إلا أن المطلق لا يتحدد حسب ابن عربي " فلا تكون معرفة الحق من الحق إلا بالقلب لا بالعقل ثم يقبلها العقل من القلب كما يقبل من الفكر، فلا يسهو سبحانه إلا أن يقلب ما ما عندك، ومعنى قلب ما عندك هو أنك عقلت المعرفة به عز وجل وضبطت ما عندك في علمك أمراً ما، وأعلى أمر ضبطته في علمك به أنه لا ينضبط سبحانه لا يتقيد ولا يشبه شيئاً ولا يشبهه فلا ينضبط مضبوط لتمييزه عما ينضبط، فقد انضبط ما لا ينضبط " وهذا ما يحاول العقل فعله، وهو تقييد المطلق بتحديد وتصوره، وهذا محال حسب ابن عربي. وبالتالي، من طبيعة الذات قبول التقييد، لكن ليست " ذات الله " ولولا التقييد لما تميزت الذوات ولما عرفت على حدى، ولطالها النسيان وأخفاها الاشتراك، فتضيع الحدود وتتجاوز القيود، مما يؤدي بالعقل إلى الوقوع في الأوهام والمغالطات، خصوصاً تلك التي تطل أحكام العقل " ولولا العين ما ظهر للتقييد حكم في الكون، فلو زالت الحدود لزال التقييد، ولا سبيل إلى زوالها فإن بقاءها عين كمالها بها صنعت المناضلة وبنات المفاضلة " . إذن، ما هي حدود العقل؟ وكيف يمكن الالتزام والتقييد بها؟ ومن يضع هذه الحدود؟ هل العقل هو من يضعها أم يضعها غيره؟

### 3-1- حدود العقل

تروم محاولة ابن عربي في وضع الحدود من أجل احترام المهام، وعدم التناول على الغير، وإذا لم يتخل العقل عن أنانيته فإن غيره يثق إلى تجاوزه وإظهاره بمظهر الجاهل الذي يعول على غيره ولا يعول عليه " فلا أعلم من العقل ولا أجهل من العقل، فالعقل مستفيد أبداً فهو العالم الذي فهو العالم الذي لا يعلم علمه و هو الجاهل الذي لا ينتهي جهله " . ما يحاول ابن عربي القيام به هو محاكمة العقل ووضع الحدود له لأن " للعقل حد تقف عنده "، محاكمة العقل هنا في تجاوزه لحدوده، لأنه في ذلك يكون معرضاً للخطأ من جهة،

ومن جهة أخرى إرادته في السيطرة على غيره لأن " العقل المحجوبة بالهوى وبطلب الرياسة والنفاسة والعلو على أبناء الجنس يمنهم ذلك من القبول والانقياد " . إذن، ما وضعت الحدود إلا لتحترم، وإذا لم تحترم نقع في الانتهاك. ما يريد ابن عربي من نقده للعقل وموقفه منه، هو منعه من الوقوع في الأوهام أو سقوطه في الأخطاء والمغالطات، لأن ما يعيبه ابن عربي على العقل هو مأل المعرفة التي ينتجها، وكأنه يحاول تقويم العقل حتى لا يقع في هذه الأوهام والأخطاء، وهذا التقويم له ضوابط وقواعد وما على العاقل أو العقل إلا أن يضبطها ويلتزم بها للوصول إلى الصواب من المعرفة.

تأصيل ابن عربي للممارسة العقلية حتى يكون قادراً على الإدراك الذاتي، يؤدي به إلى الوقوف من العقل موقفاً سلبياً، يتجلى في تضييق الحدود عليه، وجعله فقط قابلاً يتلقى دون امكانية الفعل النظري الذي يتميز به " فقد علمنا أن العقل ما عنده شيء من حيث نفسه وأن الذي يكتسبه من العلوم إنما هو من كونه عنده صفة القبول " . يحاول الشيخ الأكبر أن يذهب بالعقل إلى أبعد الحدود الممكنة فيجد دوره يقتصر فقط على القبول، عقل قابل يعني عقل غير قادر على الفعل، ينتظر ما يمكن أن يقدمه الشيء أو يكشف عن خفاياه، لم يضع ابن عربي هنا الحدود للعقل وإنما قام بسجنه، وفي نفس الوقت وسع من أفق رؤيته للوجود والعالم، من خلال قدرته على قبول كل شيء، والأهم من ذلك هو عدم الوقوع في الوهم أو الخطأ الذي يشكل أكبر تهديد للعقل.

دعوة ابن عربي لوضع الحدود كانت الغاية منه، الحد من فعالية العقل وأن يقتصر دوره على التلقي، أي عقل منفعل ومرتبط بغيره في تحصيله لمطلوبه " فمن طلب الله بعقله من طريق فكره ونظره فهو تائه وإنما حسبه التهيؤ لقبول ما يهبه الله من ذلك فافهم " . أي إن ابن عربي لا يدعو إلى استقلال العقل وإنما إلى تبعته، وبالتالي، على الرغم من بحث ابن عربي عن نجاعة العقل في فعل المعرفة، إلا أنه ضيق من حدود فعله، مما يخدم توجهه وغايته وهي فلسفة التلقي والانتظار " إن علمونا غير مقتنص من الأنفاظ ولا من أفواه الرجال ولا من بطون الدفاتر والطروس بل علمونا عن تجليات على القلب عند غلبة سلطان الوجد وحالة الفناء بالوجود " . بمعنى آخر أن كل ما يتلقاه الصوفي هو

من استعداده للقبول والتلقي وليس من استقلاله وإرادته في المعرفة وادعائها لأن " الحق الذي نأخذ العلوم عنه بخلو القلب من الفكر والاستعداد لقبول الواردات هو الذي يعطينا الأمر على أصله من غير إجمال ولا حيرة " . إذن، أهم حد يضعه ابن عربي للعقل هو أن يقتصر دوره على القبول والتلقي وأن لا يتعدى ذلك نحو الفعل والنظر " إذ إن علوم النظر أوهام، عند أهل الإلهام القائم عن الإلهام لا تخطئ والحكم به لا يبطن " . لماذا إذن، هذا التضييق على العقل؟ تضييق ابن عربي على العقل، كان يهدف لتأسيس معرفة لها مصداقية أكبر، ولا يدخل عليها الخطأ والباطل

والوهم، إلا أنه " لا بد من سلطان الوهم الذي يحكم على العاقل الباحث فيما جاء به الحق في هذه الصورة " ، ولأن هذه الأوصاف أي الباطل والخطأ والكذب، يعطيها اسم واحد هو العدم، وما نحتاج إليه هو عدم العودة إلى العدم والهروب منه، أي الابتعاد من العدم والخروج معرفياً إلى الوجود، لذلك فالمطلوب في المعرفة أن تكون صادقة صحيحة لا فاسدة، صائبة لا خاطئة، معرفة يمكن نعتها بالوجود، ومن ثمة على العقل أن لا يتزلزل إلى الأوهام وإنتاج أحكام يطالها الخطأ والغلط، وأن يكون قادراً على إنتاج الجديد ولا يقع في آفة التقليد، الذي يقتل العقل، ويحد من انفتاحه على الوجود.

يحد الإنسان بحدود حسه وخياله وفكره، أي أنه لا يستطيع تجاوز هذه الحدود، فمن أين له بذلك الادعاء الذي يدعي فيه القدرة على التجاوز والوصول إلى عوالم غير موجودة والعيش والتواجد فيها؟ وأي إنسان هذا الذي لديه هذه القدرة على كسر الحدود وتجاوز المموس وعدم الاعتراف بالموجود نحو اللامحدود؟ ما الذي يعطيه ذلك؟

### أ - حدود حسية

يرى الشيخ الأكبر أن بنية العقل هشة، ويعتمد على غيره في بناء الأحكام العقلية، لأن العقل في ذاته مفتقر إليها، أو أنه فارغ إلا من الضروريات أو ما هو فطري مادام " العقل لا علم عنده إلا الضروريات التي فطر عليها " . هناك مبادئ، لكنها مبادئ ضرورية و فطرية تحتاج إلى من يفعلها ويحركها نحو تحصيل المعرفة، وهذا التحريك تدخل فيه مجموعة من القوى. لكن في قول آخر يرى أن العقل فارغ من أي محتوى " فقد علمنا أن العقل ما عنده شيء من حيث نفسه، وأن الذي يكتسبه من العلوم إنما هو من كونه عنده صفة القبول " . يركز ابن عربي دائماً على القبول والتلقي، هذه هي حدود العقل التي عليه أن لا يتجاوزها، فالعقل فقير بالذات، واقتارعه هذا جعله في حاجة إلى غيره في إصدار أحكامه العقلية " فانظر يا أخي ما أقرر العقل حيث لا يعرف شيئاً مما ذكرناه إلا بواسطة هذه القوى وفيها من العلل ما فيها " .

تمر المعرفة العقلية حسب ابن عربي عبر سلسلة من النقلات لكي تصل إلى العقل، مروراً من الحس إلى الخيال إلى الفكر، وهذا الأمر يضع مسافة بين الشيء وإدراكه مباشرة من طرف العقل، إلى جانب عيب الوساطة هناك عيوب تتحوى عليها كل قوة، وهو أنها غير قادرة على تجاوز حدود إدراكها، وفيها من العيوب ما فيها، مما يطرح على المعرفة العقلية صعوبات أهمها السقوط في الغلط والخطأ، ومن ثمة إنتاج الأوهام بحيث " ما من قوة إلا ولها موانع وأغاليط فيحتاج إلى فصلها من الصحيح الثابت " .

يؤدي عيب الوساطة إلى عدم إدراك الشيء مباشرة وفي ذاته، مما قد يضيف إلى الشيء أشياء كما قد ينقص منه. انتقاد ابن عربي للعقل هو انتقاد للطريقة وادعاءاته النظرية

في الممارسة الفعلية لإنتاج معرفة عقلية. من هنا كانت أهمية دعوة ابن عربي لإقامة الحدود حتى لا يسقط العقل في ادعاء ما ليس له، أي ادعاء الاستقلالية والفعالية وهو في ذاته مفتقر ويعتمد على غيره في إصدار الأحكام والتي قد يطالها الوهم.

يحاول ابن عربي أن يقتني مسار المعرفة، للوقوف على مصادر الوهم والقوى المسؤولة عنه، فيبدأ بالحس أولاً في علاقته بالحكم العقلي، وينسب الخطأ للعقل وحده، ويتهمه بالغلط، ولا دخل للحس في ذلك ولا حتى الخيال. لكن الفكر قد يكون له دور كبير في أوهام العقل.

يعتمد العقل على ما ينقله الحس كشاهد، لأنه ينقل ما يتلقاه دون أن يتدخل في ذلك، كما أن إدراك الحس مباشر وبدون واسطة، لأنه يكون أقرب من الشيء أكثر من غيره. لا يخطئ الحس لأن إدراكه مباشر ولا يتدخل فيما يتلقاه " فما غلط حس قط ولا ما هو إدراكه ضروري، فلا شك أن الحس رأى تحركاً بلا شك ووجد طعماً مرّاً بلا شك، فأدرك بالبصر التحرك بذاته .... فيان أن العقل غلط لا الحس، فلا ينسب الغلط أبداً في الحقيقة إلا للحاكم لا للشاهد " .

لذلك لا يخطئ الحس عند ابن عربي، إلا الناقل قد يتصرف فيما ينقله، والشاهد قد يتدخل في تغيير معالم الشهادة، إلا أن ابن عربي يؤكد على أن الخطأ ليس من طبيعة الحس وإنما من العقل " فلم يجعل للحس غلطا جملة واحدة. وأن الذي يدركه الحس حق فإنه موصل ما هو حاكم بل شاهد، وإنما العقل هو الحاكم والغلط منسوب إلى الحاكم في الحكم. " إذن، يعطي ابن عربي أهمية للحس وعدم وصفه بالغلط أو امكانية الوقوع في الخطأ ونقل الأوهام، لأنه هو المصدر الوحيد للمعرفة أو العلم، أما باقي القوى فإنها تأخذ منه حسب القرب أو البعد منه، " والحس أشرف من العقل لما فيه من الإطلاق فله السراح بالاستحقاق وأنه المحيط بما تعطيه الأوهام وإن أحواله الأحلام، والعقول قاصرة عن نسبة الوجود إلى هذه الأعيان المتخيلة " .

إدراك الحس للأشياء إدراك مباشر وبدون واسطة، لا يقلد غيره وإنما يحاكي الشيء كما هو أو كما يتبدى له، ينقل دون أن يتصرف، يشاهد دون أن يعاند لأنه شاهد، كما أنه لا يدعي ما ليس في قوته وقدرته، لذلك يسلم من الوهم والوقوع في الغلط أو الخطأ، مادامت الأوهام قد تطل الأحكام العقلية، لأنها هي من يدخل عليها الغلط والخطأ " وإنما المذهب الصحيح إنما العين لا تخطي أبداً لا هي ولا جميع الحواس، فإن إدراك الحواس الأشياء إدراك ذاتي ولا تؤثر العلل الظاهرة المعارضة في الذاتيات " . لا ندرك الذاتيات إلا ذاتياً، والحس من القوى التي لا تخطي ذاتياً حتى وإن اعترضتها صعوبات، من هنا أهمية الحس في تشكيل معرفة وتكوين رؤية صادقة بالعالم والوجود فلا " يعقل بالعقل ولا بالحس إلا الوجود الذي نستند إليه في وجودنا " . إذن، تقدم لنا المعرفة الصادقة رؤية حقة وحقيقية بالوجود، بمساهمة

يعيش الإنسان مع ذاته صراعات عديدة منها داخلية وأخرى خارجية، تؤثر على داخل الإنسان ليصبح الصراع فردي وشخصي، مما يطرح صعوبات في تحديد الذات، ومن ثمة الإنسان، كل طرف من أطراف الصراع يحاول أن يأخذ وضع التعريف والتحديد، كتحديد الإنسان بالعقل أو النطق أو الجسد أو بالروح، إلا أن هذا الصراع يعمل على تغيير المواقع والأولوية، ويعيد مسألة التحديد إلى عدم التحديد بوجه واحد والارتكاز على معطى دون آخر، ومن بين الأمور التي تؤثر في عملية التحديد وتشوش على إمكانية التعريف هو مفهوم الوهم، الذي يعطيه ابن عربي أهمية في تصور الوجود والعالم والحقيقة، بل وله سلطة على العقل والتفكير، مما يهدد الوجود والعالم والحقيقة بدخول الأوهام عليها في تصور لها. لذلك يطرح علينا هذا البحث الخروج بمجموعة من الضوابط، تؤطر العقل والتفكير، للوصول والبحث عن الحقيقة، بحيث يجب أن تضي هذه الآليات إلى نتيجة ممكنة، وهذه الآليات يجب ضبطها وتصنيفها وتمحيصها، حتى لا يزيغ العقل ويحيد عن المطلوب. إذن، ما هو الوهم في تصور ابن عربي؟ وكيف يشتغل ويؤثر في مصادر المعرفة كالعقل والتفكير؟ وهل يمكن تجاوز الوهم أم أنه من صميم وجودنا وماهيتنا؟ وكيف يمكن توجيه الوهم نحو طريق الحقيقة؟

### 1 - تعريف الوهم

يعتبر الوهم من المفاهيم المتداولة في كتابات ابن عربي، بحيث يعطيه أهمية في تحصيل المعرفة والتأثير في الوصول إليها، لذلك لديه القدرة في التحكم والسيطرة من خلال سلطته التي يفرضها على النتائج المتوصل إليها، وكذا طريقة التفكير التي يتبعها في تحصيل المطلوب. وقد تدخل عدة عوامل في الزيادة من حدة الوهم وقوته أو قد تخفف من سطوته وتحكمه " فالوهم هو السلطان الأعظم في هذه النشأة الإنسانية " إلا أن الوهم قبل أن تكون له هذه السلطة هو قوة من قوى الإدراك " غير أن هذه القوى الأربعة قوة الخيال والوهم والحفظ والذكر هي في الإنسان أقوى منها في الحيوان " من هنا جاءت سلطته وقوته وتحكمه، أي أنه لا يمكن الاستغناء عنه أو محاولة تجاوزه لأنه يطال مصادر المعرفة وطرق الوصول إليها، فيؤثر فيها ويتدخل في تشكيل معاملها، كما أنه قد يتحكم في رؤية الإنسان للوجود والعالم



## معرض الكتاب وإسهاماته في إيجاد جيل قارئ

بقلم / د. إسحاق بن عبد الله السعدي

المعرفة وجدة في العطاء وثراء فكري يمثل ظاهرة وعي وإفراز فكر وجدلية معرفة وعقد حوار حضاري يسهم في التنمية والنهوض بالوطن والأمة. والأمم المتحضرة تترك أهمية الكتاب في تثقيف أبنائها وتنمية معارفهم ومهاراتهم، وإيجاد جيل قارئ يسهم بالمعرفة ويبحث عنها ويحرص على الرقي في مراتبها كي يحصل منها القدر الكفيل بإنارة فكره وإشباع نهمه الفطري للعلم والمعرفة وتزداد الحاجة إلى ذلك في مواجهة التسليح الثقلي الذي تشيعه ثقافة الاستهلاك والاستهداف وما نجم عنهما من الجهل المركب الباعث على الحيرة والريبة والشك على حد تعبير لويس باستور:

ولا أدل على ذلك من إقامة معرض الرياض الدولي للكتاب الذي أقيم قبل أسابيع من كل عام وتشارك فيه دور النشر المحلية والإقليمية والعالمية مع ما يصاحبه من محاضرات وندوات ولقاءات وحوارات وما تفتق عنه من أفكار إبداعية تدعم الإشادة بالكتاب والمحافظة على ألقه ومكانته لثلا تتال منها تلك الوسائط الحديثة ولا سيما أنها ذات جاذبية وإغراء وسعة انتشار وقوة تأثير ..

لا شك أن حركة الفكر وإنتاجيته مقياس لتقدم الأمة ونهوضها ودليل على رقي وعيها، والارتباط بين المعرفة والحضارة يظهر بجلاء عندما تتجسد المعرفة في معطيات حضارية ومعالم شاهدة تسفر عن مدى ما وصلت إليه الأمة في سلم العلم والمعرفة من خلال توظيفها في عالم الواقع ثم إن للأمم المتحضرة وسائلها المتعددة في نقل المعرفة ونشرها واستثمارها ومن أهم تلك الوسائل إقامة معارض الكتب فعن طريقها يتم التواصل الثقافي عالمياً ومحلياً.

ما يرى من ازدياد الاهتمام بالكتاب وعرضه يحمل في طياته دلالات واضحة على مدى ازدهار الحركة الثقافية وأن قوام ذلك إيجاد جيل قارئ يعي قيمة العلم والمعرفة في تكوينه الذاتي وثقافته الإيجابية وأن معادلة النجاح في الحياة تتأسس أول ما تتأسس عليه على العلم النافع والعمل الصالح وعلى الرغم من الزخم المعرفي الذي تقدمه وسائط المعرفة الجديدة بسرعة ويسر وتنوع أخذ فلا يزال الكتاب هو الأصل وهو الأهم وينبغي أن يكون كذلك.

إن معرض الكتاب بما يشتمل عليه من التنوع في أوعية

مروره عبر وسائط أهمها واسطة الحس، ومادام الحس لا يستطيع تجاوز ما هو محسوس، فإن ذلك يؤدي به إلى عدم قدرته على إدراك ما هو مفارق، ومادامت القوى تعتمد على الحس فإنها ترتبط به ولا يمكنها الاستغناء عنه " أما القوة المفكرة فلا يفكر الإنسان أبداً إلى في أشياء موجودة عنده تلقاها من جهة الحس و أوائل العقل، ومن الفكر فيها في خزانة الخيال يحصل له علم بأمر بينه وبين هذه الأشياء التي فكر فيها مناسبة ولا مناسبة بين الله وبين خلقه، فإذا لا يصح العلم به من جهة الفكر ولهذا منعت العلماء من الفكر في ذات الله تعالى " . لكن، رغم عدم امكانية العلم " بالله " من طريق الفكر إلا أن ابن عربي يطالبه بالدفاع عنه من خلال قوله: " وعلم النور على قسمين: علوم كشف، وعلوم برهان بصحيح فكر، فيحصل له من طريق البرهان ما يرد به الشبهة المضلة والقادحة في وجود الحق وتوحيد أسمائه وأفعاله، فالبرهان يرد على المعطلة، ويدل على إثبات وجود الإله وبه يرد على أهل الشرك " . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، كيف يمكن اثبات ما لا يمكن تصوره أو البرهنة و العلم به ؟

لا يستطيع الفكر العلم " بالله " وهو هنا ما يخطر لمن نظر في توحيد الله من طلب وماهيته حقيقته و هو معرفة ذاته التي ما تعرف، وحجر التفكير فيها لعظيم قدرها، وعدم المناسبة بينها وبين ما يتوهم أن يكون دليلاً عليها فلا يتصورها وهم ولا يقيدوها عقل " ، ولكن عليه أن يدافع عنه ويثبت وجوده ويرد على ما يمكن أن يؤدي إلى الوقوع في الشبهات والتلبيس " ونمغ من الفكر جملة واحدة لأنه يورث التلبيس وعدم الصدق " . نطالب الفكر بالدفاع عما لا يمكن أن يعلمه أو يتصور، مع العلم أنه هو من يؤدي إلى ذلك. وهكذا، نحاول فهم هذا الاهتمام الكبير من طرف ابن عربي بالعقل والفكر، لأن لهما أهمية كبيرة في توجهاته، بحيث لكي يصل إلى مطلوبه وغايته عليه أن يزيل ما يمكن أن يحول دون ذلك، وأهم عقبة تواجه المنهج العرفاني هما العقل والإنسان، الفكر لصيق بالإنسان وأكثر تعبيراً عن وجوده الشقي، لأن " أصحاب الأفكار ما برحوا بأفكارهم في الأكوام فظلم أن يحاروا ويعجزوا " .

يعبر الفكر عن لحظة سقوط الإنسان ورفضه لما كان عليه، مع عدم امكانية التجاوز، من هنا مطالبة ابن عربي بوضع الحدود لهذه القوى سواء كانت عقلاً أو فكراً أو حساً، حتى لا تقع ونسقط في التقليد والميتافيزيقا، فالتقليد قانون الأموات حسب ابن عربي، ويمنع الفكر من الدخول إلى الميتافيزيقا، لأنه لا يستطيع أن يتصور ما هو مفارق، مادام يرتبط بما هو واقعي أو حسي، أما ما هو ميتافيزيقي لا يمكن إدراكه دون المرور مما هو واقعي، تجريد الواقع عملية لاحقة تأتي بعد إدراك الواقع، إذ لا يمكن للفكر أن يجرد إلا ما هو واقعي في شكل تصور أو تركيب للدليل، أما ما هو مجرد لا يمكن تجريده أو إدراكه.

تحويل الوجود إلى فكر وعقل، أي تحويله إلى أخطاء وتراكم لسلسلة من المغالطات، وتحديد الوجود بالفكر يحوله إلى مجرد تاريخ للفكر، لذلك لا يمكن أن يعبر الفكر عن روح الوجود الذي يطمح إليه الإنسان وكذلك العقل. نحن نعيش في واقع ميت مجرد من كل روح، ولا يزال الإنسان يبحث عن روح هذا الوجود، وروحه، هو الإنسان، ليس الإنسان المفكر ولا العاقل وإنما الإنسان الكامل، واقع قادر على قبول الإنسان الكامل، وما دام الواقع لا يعبر عن هذا الإنسان فإنه محكوم عليه بالزوال أو استمرارية الموت وإمكانية العدم.

ويختص بهذا الفن من العلم ولهذا يقولون في النظر منه صحيح ومنه فاسد " .

يأخذ الفكر من الحس مجموعة من الانطباعات والادراكات الحسية، لكي يؤلف بينها، بواسطة تلك الأوليات العقلية أو البديهيات، وهذا الأخذ يؤدي بالفكر إلى السقوط في تعدد الوسائط، لأنه بين طرفين الحس والعقل، يأخذ من الحس كما يأخذ من العقل، إلا أنه لا يقتصر عليهما وإنما يستطيع أن يأخذ حتى عن الخيال، وفي هذا المستوى ينتقل من الأخذ عن العقل والحس، إلى تقديم الدليل له، وذلك بتركيبه للصور الخيالية. إذن، يأخذ الفكر من العقل الأوليات والتي هي بمثابة مبادئ وقواعد للتفكير، لأنه لا يحتوي على مبادئ قبلية ومنطقتات سابقة بها يعمل ويشغل، بحيث يعطي للعقل أفكاراً في شكل دليل، يأخذ العقل هذا الدليل فيحكم به على المدلول. إذن " القوة المفكرة إذا جاءت إلى الخيال افتقرت إلى القوة المصورة لتركب مما ضبطه الخيال من الأمور صورة دليل على أمر ما، وبرهان تستند فيه إلى المحسوسات أو الضرورات وهي أمور مركوزة في الجبلية، فإذا تصور الفكر ذلك الدليل حينئذ يأخذ العقل منه فيحكم به على المدلول، وما من قوة إلا ولها موانع وأغاليط " .

بتموضع الفكر بين وضعيتين مع دورين مختلفين، دور يأخذ فيه من الحس والعقل لكي يجد طريقاً في الاشتغال، حتى يعمل على تركيب الدليل للانتقال إلى وضعية من يقدم الدليل العقلي لكي يمارس مهمته و هو الحكم العقلي بناءً على ما ركبه الفكر. لهذا الغرض يذم ابن عربي العقل من جهة الفكر، لأن الدليل هو من تركيب الفكر وليس العقل . وهذا الأمر سوف يوصلنا إلى نتيجة مفادها أن " العقل يقلد الفكر ومنه صحيح و فاسد فيكون علمه بالاتفاق فما تم إلا تقليد " . وهكذا، يكون الفكر أقرب شيء إلى الإنسان من العقل والخيال و القلب، يعبر عن معاناة الإنسان وقلقه الوجودي والمعرفي، يعبر عن ذلك الجانب السلبي من وجود الإنسان، الفكر لصيق بالإنسان وأكثر تعبيراً عن وجوده الشقي، لأن " أصحاب الأفكار ما برحوا بأفكارهم في الأكوام فظلم أن يحاروا ويعجزوا " .

يعبر الفكر عن لحظة سقوط الإنسان ورفضه لما كان عليه، مع عدم امكانية التجاوز، من هنا مطالبة ابن عربي بوضع الحدود لهذه القوى سواء كانت عقلاً أو فكراً أو حساً، حتى لا تقع ونسقط في التقليد والميتافيزيقا، فالتقليد قانون الأموات حسب ابن عربي، ويمنع الفكر من الدخول إلى الميتافيزيقا، لأنه لا يستطيع أن يتصور ما هو مفارق، مادام يرتبط بما هو واقعي أو حسي، أما ما هو ميتافيزيقي لا يمكن إدراكه دون المرور مما هو واقعي، تجريد الواقع عملية لاحقة تأتي بعد إدراك الواقع، إذ لا يمكن للفكر أن يجرد إلا ما هو واقعي في شكل تصور أو تركيب للدليل، أما ما هو مجرد لا يمكن تجريده أو إدراكه.

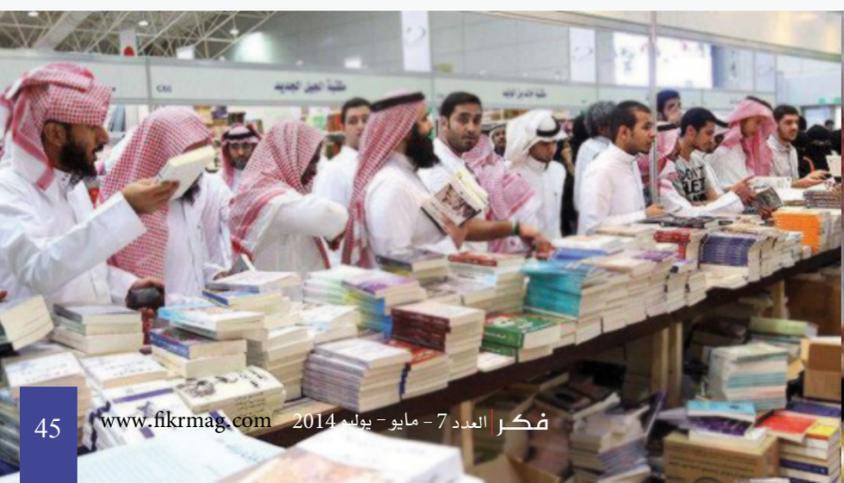
كل من العقل الذي لا يخطئ والحس في تشكيل معالم هذه الرؤية للوجود.

ب - حدود فكرية

رغم سيادة العقل و قدرته على السيطرة، إلا أنها سيادة في الظاهر، لكن في تحصيله للمعرفة يرتكز على غيره، أي افتقاره في الباطن، لأن ذلك من طبيعته وماهيته مادام " العقل خلق ساذجاً ليس عنده من العلوم النظرية شيء " ومن القوى التي يعتمد عليها كثيراً، الفكر، والذي يعتبره ابن عربي شقاء أبدي لازم للإنسان في وجوده، لأن قدر الإنسان هو أن يفكر، وفي تفكيره شقاء في حياته، يرهق الفكر الإنسان، ويقلق وجوده، يجعل حياته هشة، ومؤسسة على أوهام واقعية، لأن الفكر يوصل إلى ذلك في معظم حالاته ووضعيته التأملية " غير أن الله تعالى ابتلاه ببلاء ما ابتلى به أحد من خلقه إما لا يسعده أو يشقيه على حسب ما يوفقه إلى استعماله، فكان البلاء الذي ابتلاه به أن خلق فيه قوة تسمى الفكر، وجعل هذه القوة خادمة لقوة أخرى تسمى العقل وجبر العقل مع سيادته على أن يأخذ منه ما يعطيه ولم يجعل للفكر مجالاً إلا في القوة الخيالية " . إذن، هناك سيادة في الظاهر وأخذ في الباطن. لهذا الغرض يرفض ابن عربي معظم المعارف التي يتم تحصيلها من طريق الفكر ويشكك فيها، مما جعل علاقته مع الفكر متوترة إلى أقصى حد، بل أكثر من ذلك هو أشد الرافضين والمنقذين له. لماذا هذه العداوة للفكر وهذا الرفض بهذا الشكل ؟

يتوجه ابن عربي بالنقد إلى ما تبني عليه المعارف، أي أنه لا يتوجه إلى المدلول ولا إلى الدال، وإنما يتوجه إلى الدليل، الذي يبني عليه المدلول بإدخال الدال في عملية التدليل والذي يقوم بهذه العملية هو الفكر، لذلك نجد هذا الاهتمام الكبير بالفكر، لأنه الأصل في إيصال العقل إلى تحصيل المدلول. إذن، حتى وإن كان ابن عربي عرفاني في توجهه، إلا أنه منطقي في تعامله مع طرق تحصيل المعرفة، وتقني مسارها من الأوائل أي تمحيص المعطيات إلى إدخالها في تركيب الدليل وصولاً إلى النتيجة أو المطلوب. ما يهم ابن عربي في هذه العملية هي تلك النقلة من الدال إلى المدلول، والتي ترتبط بالدليل خصوصاً.

تعتمد المعرفة أو العلم أو ما يمكن تسميته بالحكم العقلي أو المدلول، على ما يركبه الفكر من دليل، لهذا يشدد ابن عربي ويركز اهتمامه على الفكر وكذلك العقل. لا يمكن انكار دورهما، لكن مهمتهما عليها أن تكون على درجة عالية من الدقة والصرامة و التزام الحدود وتقييد الممارسة حتى لا يكون هناك زيغ أو خروج عن المطلوب. ما يرغب فيه ابن عربي من كل هذا هو تقويم الأفكار والأحكام وفق ضوابط وقواعد صارمة تؤول بنا إلى معرفة صادقة ناتجة عن فكر صحيح لا فاسد وعن عقل سعيد، لأن " علم العقل: وهو علم يحصل لك ضرورة أو عقب نظر في دليل بشرط العثور على وجه ذلك الدليل وشبهه من جنسه في عالم الفكر الذي يجمع





# المكتبة الكونية

حامد بن شيخ العيدروس



# (1) القرار

د.موسى جاب الله مصطفى فايد

حقاً لا خاب من استشار ولا ندم من استخار، ولكن انتبه فيجب أن تستشير من تستفيد بخبرتهم وعلمهم ورجاحة عقلهم، فيكون قرارك بعد الاستشارة قوياً وفعالاً.

5- انظر إلى المشكلة من وجهة نظر أخرى

تذكر دائماً أن لكل مشكلة ثلاث وجهات نظر: أولها وجهة نظرك، وثانيها وجهة نظر شخص آخر، وثالثها وجهة النظر السليمة. ولكي يكون قرارك قوياً وفعالاً لابد أن تعرف وجهات النظر الأخرى؛ لتستخلص الوجهة السليمة.

6- تذكر أنك لست على صواب دائماً

قد يوهننا الوصول إلى المراكز القيادية أننا على صواب دائماً، فنصل عندئذ إلى الفرور المانع من تقبل وجهات نظر غيرنا، بل يجب علينا التحرر من الفرور والاعتداد بالرأي؛ حتى نتجه بقراراتنا الصائبة إلى الوجهة السليمة.

7- تنفيذ القرار

القرار لا يكون قراراً إلا بعد تنفيذه، أما ما يخزن في الأدراج والملفات فهو غير ذي قيمة. فإذا عزم فتوكل على الله، ونفذ قرارك دون إبطاء.

8- مراقبة الذات

لتكن لك عين على قراراتك كلها؛ فتهرب الفوائد من القرارات الصائبة للاستفادة المستقبلية منها، وتحلل القرارات الخاطئة وأسبابها كي لا تقع فيها مرة أخرى.

9- متابعة القرار

إن متابعة تنفيذ القرار لها أهمية كبرى لا تقل عن اتخاذ القرار ذاته، وذلك يمكن من معالجة المشكلات الطارئة التي قد تعوق تنفيذ القرار أو تؤخره.

جدول فرنكلين لاتخاذ القرار السريع

قد تضطرك الظروف إلى اتخاذ قرار سريع وحاسم في وقت وجيز، واليك طريقة بنيامين فرانكلين - وهو من أبرز مؤسسي أمريكا - في اتخاذ القرارات السريعة.

فيكتب في العمود الأول إيجابيات اتخاذ القرار، ويكتب في العمود الثاني السلبيات المترتبة على اتخاذ القرار، ثم يعد كم كتب من الإيجابيات وكم كتب من السلبيات؛ فإذا كانت الإيجابيات أكثر اتخذ القرار، وإذا كانت السلبيات أكثر أحجم عن القرار.

ولا تنس أن هذه الطريقة تتطلب تركيزاً شديداً، وكلما أخذت وقتاً أطول كان ذلك أدعي لتجميع أكبر عدد من الإيجابيات والسلبيات، والتفكير فيما يجب عليك عمله.

فرص عظيمة؛ فالتسويق والتأخير قد يؤدي إلى أن يكون قرارك عديم الفائدة التي اتخذت من أجلها، كما أن التسرع في اتخاذ القرار قد يسبب ثورة عارمة عليك إن لم تدرس آثاره جيداً وتقيّمها. والخلاصة أن القرار الصائب لا بد أن يتخذ في الوقت المناسب دون إسراع أو تأخير.

7- الخوف والرهيبة

أكثر أنواع الخوف زيارة لنا هو الخوف من تجارب سابقة فاشلة، تعمم على التفكير سحابة من الرهبة والخوف. ولكن تسلح بالمعرفة والأدوات العلمية والعملية، وخطط جيداً، وامض إلى ما خططت فيه بلا خوف وبلا رهيبة.

بعد أن عرفنا أسباب القرار الخاطئ من باب (علمت الشر لا للشر ولكن لتوقيه، ومن لم يعلم الشر يقع فيه)، وكما أن الطهور مفتاح الصلاة، والصبر مفتاح الفرج، والقرار مفتاح القيادة، فإليك فيما يلي:

المفاتيح التسعة لاتخاذ قرار قوي وفعال

1- تيسير العمل  
إنما جعلت القرارات لتيسير العمل، فلا بد لها من المرونة ومواكبة العصر وما استجد من أحداث. فلا يعقل مثلاً التمسك بمسك الدفاتر المحاسبية والتقيد بها في عصر صار الحاسب الآلي وبرامجه موقراً للوقت ويتميز بالدقة.

2- اجعل قرارك أسلوب حياة

فتعودك على إدارة حياتك بأسلوب اتخاذ القرار - ولو في الأمور البسيطة - يجعل قرارك قوياً وفعالاً، وذلك خير من أن تتخذ القرار لأول مرة، ولم تعود نفسك عليه، فيكون عندئذ أكثر مؤونة من التمرس على ذلك.

3- جرد الحق من المشاعر

لا تجعل الحب والكره يتحكم في حكمك على الناس أو يؤثر في قرارك؛ لأن طول الفرد أو قصر قامته مثلاً لا يؤثر في أدائه عمله، كما لا يؤثر في عمله جمال خلقته أو دماغها. فاترك الحب والكره كمشاعر شخصية لك تجاه الناس، واجعل المقاييس العلمية هي أساس التقييم واتخاذ القرار؛ ليكون قرارك صائباً وفعالاً.

4- الاستشارة

القيادة هي فن اتخاذ القرار ولكن هل يمكن لقرارك أن يكون خاطئاً؟  
الجواب: نعم؛ فليس هناك إنسان معصوم من الخطأ سوى رسول الله - ﷺ - فيما بلغ عن ربه فقط، وما خلا ذلك فهو معرض للصواب والخطأ. فما أسباب القرار الخاطئ؟  
لا تخرج أسباب القرار الخاطئ عن واحد أو أكثر من الأسباب الآتية:

1- إرهاق الذهن  
الذهن المرهق لا يعمل بكفاءة، وإرهاق الجسد يؤثر على التفكير. فأرجح جسدك وذهنك قبل اتخاذ قرار حاسم.

2- المشكلات الشخصية

يجب أن تعزلها عن تفكيرك في عملك؛ لأنها مؤثر خارجي قوي يقتل من فرص سلامة القرار.  
3- طلب المثالية الزائدة

كثير من المؤسسات والشركات التي تتبع نمطاً (روتينياً) بطيئاً لا تتخذ قراراً إلا بعد الاطمئنان إلى صوابه 100% وأنه نموذجي 100%؛ فتضيق فرص راحة نتيجة البطء في اتخاذ القرار طلباً للمثالية.

4- الغضب

فهو قادر على وضع غشاوة على عينيك، فإما أن تعميها عن رؤية الحقيقة، أو على الأقل تشوش عليها رؤية الحقيقة، أو قد ترى حقائق مغلوطة تكون سبباً لقرار خاطئ، والصواب في حالة الغضب ألا تصدر قراراً بل تصمت.

5- اتباع الهوى

إن اتباع المزاجية وترك الأساليب العلمية خصوصاً في تقييم الأداء سيؤدي إلى قرار خاطئ بالتأكيد. والحق لا يكون حقاً بمجرد أنك تؤمن به، والباطل لا يكون باطلاً بمجرد أنك لا توافقه، ولا عيب في أن تستشير معاونيك ومستشاريك للوصول إلى قرار صائب؛ فاتباع الحق خير من التمادي في الباطل القائم على اتباع الهوى.

6- الوقت الخطأ

إنك إن تأخرت عن الوقت المناسب لاتخاذ القرار فقد تقوتك

كان يرسم جدولاً من عمودين: أعلى الأول نعم، وأعلى الثاني لا، كما يلي:

لا	نعم
1-	1-
2-	2-
3-	3-
4-	4-
5-	5-

النسب تعكس حاجة المجتمعات أحياناً، إلا أنها قد تقيد كذلك بجهل المجتمع لحاجته، وإذا جهل مجتمع ما حاجته فإن ذلك مؤشر على ركوده المعرفي liquiditiy trap. قد نستغرب أحياناً إننا لا نعرف حاجتنا، وما ذلك إلا لأن الحاجة تستتر خلف الترف والجهل المركب.

سلوكيات حسنة وأخرى سيئة داخل أروقة المكتبة

من السلوكيات الحسنة أن يدرك الإنسان والمجتمع أبعاد هذه المكتبة زماناً ومكاناً وكماً ونوعاً، وأن هذا الإدراك يسهم إيجاباً في الاستفادة المثلى من هذه المكتبة. ومن السلوكيات الحسنة كذلك أن يقف الإنسان والمجتمع في المكان الصحيح داخل أروقة المكتب وبما يتناسب مع حاجتهما أولاً ومع الوقت والمكان.

وأما السلوكيات السيئة، فأبرزها أن يدخل الإنسان إلى هذه المكتبة وهو جاهل بحاجته فينتهي فيها ويعيق من كفاءتها. ومنها أيضاً الوقوف في المكان الخاطئ الذي لا يتوافق مع حاجة المجتمع. ومنها أن يعلي صوته نقداً وشتماً فهذا لا يتناسب مع معنى كلمة مكتبة لأنها تستلزم الهدوء.

وعلى مر العصور، فإن الفرق بين المجتمعات هو في المشاركة الفاعلة في هذه المنظومة إيداعاً واستدعاءً، فالكثافة باختصار هي آلية استيداع للمعلومة في مكتبة الكون ليستفيد منها إنسان اليوم وإنسان الغد وإنسان الشرق وإنسان الغرب، والقراءة في المقابل هي آلية استدعاء لتلك المعلومة. فهناك مجتمعات لديها حس التمييز والتقييم لكل ما تضيفه أو تستدعيه من هذه المكتبة، مراعية في ذلك نمو الإنسان قلباً وعقلاً وجسداً، وحفظه قبل أن يولد وأثناء حياته وبعد وفاته، وفي المقابل، هناك مجتمعات غير مميزة لسلوكها داخل أروقة هذه المكتبة الكونية العامرة، فتجدها تائهة لا تحسن قراءة التصنيف العشري المستخدم في أبحاث هذه المكتبة. فكل أمة لها رصيد معلوم في سجلات هذه المكتبة تتغير نسبته إلى مجمل ما هو مستودع في المكتبة بتغير الأحوال والأزمنة، فالفراغ مثلاً كانوا يوماً ما يمتلكون رصيداً ضخماً في هذه المكتبة، وفي يوم ما كانت أمم في الشرق وفي الغرب يمتلكون مثل ذلك، وفي خلال الثلاثمائة سنة الماضية ارتفع عدد سكان الأرض ارتفاعاً ضخماً وتغيرت بذلك أحوال الأرض في سجلات مكتبة الكون.

وأخيراً، فإن القراءة والكتابة هي انعكاس لصورة الحياة التي يتفاعل فيها الإنسان والحيوان والنبات والجماد، فإذا كان المبيعات في مثل هذه المعارض تعكس واقع المجتمعات. فمثلاً إذا كان سبعين بالمئة من الكتب التي تباع في معرض ما في مكان من العالم متعلقة بأمراض القلب، فإنه يفهم من ذلك أن حاجة هذا المجتمع تدور حول أمراض القلب، فهو إما أنه يواجه تحديات في هذا الميدان أو أن لديه تطلعات متعلقة به. وإذا كانت مثل هذه الأشخاص.

هناك عدد كبير من معارض الكتب التي تقام في الشرق والغرب يباع من خلالها كتب في مجالات مختلفة. إن نسب المبيعات في مثل هذه المعارض تعكس واقع المجتمعات. فمثلاً إذا كان سبعين بالمئة من الكتب التي تباع في معرض ما في مكان من العالم متعلقة بأمراض القلب، فإنه يفهم من ذلك أن حاجة هذا المجتمع تدور حول أمراض القلب، فهو إما أنه يواجه تحديات في هذا الميدان أو أن لديه تطلعات متعلقة به. وإذا كانت مثل هذه الأشخاص.

آخر معان آخر. ومن صور الكتابة أيضاً، ما يكتبه الإنسان للكون من خلال سلوكه. فسلوكه كلمات، ومعتقداته ومبادئه هي بمثابة معان كامنة وراء تلك الكلمات.

والصورة الثالثة هي كتابة الإنسان للإنسان وقراءة الإنسان للإنسان، وهي تختلف باختلاف الزمان والمكان والحال، فمنهم من كتب على الأحجار وعلى أوراق الأشجار، ومنهم من كتب في صدور رجال حملوا أمانة نقله إلى مستحقيه متعهدين بضمانة حفظه، ومنهم من كتب بسلوكه دون أن ينطق أو يكتب حرفاً واحداً.

واليوم لم يعد الكتاب التقليدي والرسوم التشكيلية والمجسمات والأفراد هي الصور الوحيدة للمعلومة، بل أضاف البشر إليها الصور المتحركة (الفيديو) والعالم الافتراضية والتي تعتبر قسماً جديداً في مكتبة الكون لم يعهده أبائنا وأجدادنا قبل عشرات السنين.

لحة عن عن مكتبة الكون اليوم  
إن الإنسان والكتاب هما أهم أوعية للمعرفة. والإنسان قد يكون أكثر الوعاين كفاءة وماذا إلا لأنه يستوعب اللفظ والمعنى معاً وهو مقصود العلم ومنه تكون ثمرته. فمن الناحية الكمية، وقبل 300 عام من الآن كان عدد البشر الذين يسكنون كوكب الأرض يتفاوت حول المليار نسمة، وقبل خمسين عاماً تقريباً بلغ عددهم ثلاث مليارات نسمة واليوم يبلغ عددهم ما يزيد على السبع مليارات نسمة. فني خلال 300 عام تقريباً تضاعف عدد البشر ستة أضعاف. نصفهم اليوم يتركزون في الصين والهند وأمريكا واندونيسيا والبرازيل على التوالي. وأما عدد الكتب، فإن شركة جوجل قدرته بـ 129 مليون كتاب في 2010، يتركز جزء كبير منها في الغرب والشرق.

وأما من الناحية النوعية فكل بحسبه، لأن النوعية تحدها الحاجة، والحاجة تحدها فلسفة الإنسان ونظرته للكون. فمن الممكن أن يعثر الإنسان على ضالته من خلال كلمة واحدة أو كتاب واحد أو شخص واحد. وأحياناً وبناء على نظرة مختلفة للكون قد يضطر إنسان آخر إلى أعداد كبيرة من الكتب والأشخاص.

هناك عدد كبير من معارض الكتب التي تقام في الشرق والغرب يباع من خلالها كتب في مجالات مختلفة. إن نسب المبيعات في مثل هذه المعارض تعكس واقع المجتمعات. فمثلاً إذا كان سبعين بالمئة من الكتب التي تباع في معرض ما في مكان من العالم متعلقة بأمراض القلب، فإنه يفهم من ذلك أن حاجة هذا المجتمع تدور حول أمراض القلب، فهو إما أنه يواجه تحديات في هذا الميدان أو أن لديه تطلعات متعلقة به. وإذا كانت مثل هذه الأشخاص.

هناك عدد كبير من معارض الكتب التي تقام في الشرق والغرب يباع من خلالها كتب في مجالات مختلفة. إن نسب المبيعات في مثل هذه المعارض تعكس واقع المجتمعات. فمثلاً إذا كان سبعين بالمئة من الكتب التي تباع في معرض ما في مكان من العالم متعلقة بأمراض القلب، فإنه يفهم من ذلك أن حاجة هذا المجتمع تدور حول أمراض القلب، فهو إما أنه يواجه تحديات في هذا الميدان أو أن لديه تطلعات متعلقة به. وإذا كانت مثل هذه الأشخاص.

اهتم الإنسان منذ القدم بحفظ وتوريث علومه، فالحضارات القديمة كالفراعنة مثلاً، كان للكتابة على ورق البردي وألواح الطين وأنواع الحجارة قيمة عظيمة لديهم، فهي التي خلدت لهم الذكر واختزلت جوهر علومهم. فبالرغم من عوامل التعرية الجغرافية والزمانية والفكرية التي عصفت بتلك الحضارات، إلا أنه أمكن للبشرية اليوم أن تستعرض بعضاً من سجلاتهم وتستلهم منها العبر. وحينما نتأمل تتابع الأزمنة وتغير معالم الأمكنة ونلاحظ التراكم المعرفي المصاحب لذلك، نجد أن إنسان اليوم قد ورث عدداً ضخماً من المعارف، وأضاف هو كذلك عدداً كبيراً منها إلى قالب المعرفة. لذلك، فعلى إنسان اليوم أن يكون أكثر حكمة في تعامله مع المعلومة أخذاً وعطاءً وتصنيفاً وتقييماً وتوريثاً.

لماذا يقرأ الإنسان ويكتب؟

الجواب على سؤال كهذا من الممكن أن يختزل في كلمة واحدة ألا وهي الحاجة. فإذا ما استشعر الإنسان حاجته لأمر ما، فسرعان ما تجده يهرع ويبدل كل ما بوسعه ليظفر بمطلوبه. فإذا احتاج الإنسان إلى الأمان مثلاً، فأمامه ثلاث خيارات، فهو إما أن يجتهد بنفسه ليظفر بالأمان، وإما أن يسأل إنساناً آخر لديه تجربة أو دراية بالأمان ليهديه إليه، وإما أن يقرأ عن الأمان في سطور الكتب. وإذا احتاج الإنسان إلى الدواء، فهو إما أن يجتهد بنفسه في اكتشاف الدواء أو يسأل طبيباً أو يقرأ ما كتبه الأطباء. وكذلك الحال مع حاجة الإنسان للأكل والشرب والمسكن وعلاقته مع الإنسان الآخر ومع المخلوقات من حوله. فليس من الحكمة أن يجتهد الإنسان في أمر قد عرفت نتيجته سلفاً، فلا أحد جرؤ على شرب السم ليثبت أنه سام، فقد كفاه أبوه بالمعلومة تلك أو كفته كتب الأحياء والطبيعة، ويبقى للتجربة مكانها اللائق بها.

ويكتب البشر أيضاً لحاجتهم لما يكتبه الآخرون، فهم يكتبون اليوم ليكتب لهم غداً، ويكتبون ليصحح لهم، ويكتبون ليحفظوا علومهم ويخلدوا تجاربهم للقادم من أجيالهم. فالكثافة هي شعور بالمسؤولية تجاه النفس والمجتمع والأرض والتاريخ، وهي أحد المحركات الأساسية لأي عملية تنموية.

مستويات القراءة والكتابة  
للقراءة والكتابة صور متعددة، أجلها قراءة ما استودعه خالق هذا الكون في كونه من معارف ودلائل، فالإنسان والأفلاك والقارات والمحيطات والكائنات جميعها هي فصول في كتاب الكون العظيم. وبالتالي فإن قراءة كل حركة وسكون في هذا الكون، توجي إلى قارئها بشيء من العلم والحكمة فني كل شيء له آية تدل على أنه واحد. والجميل في هذا النوع من القراءة أنه مطلق المعنى، فالشمس تسطر لقارئ معنى الصفاء، ولقارئ

مستويات القراءة والكتابة  
للقراءة والكتابة صور متعددة، أجلها قراءة ما استودعه خالق هذا الكون في كونه من معارف ودلائل، فالإنسان والأفلاك والقارات والمحيطات والكائنات جميعها هي فصول في كتاب الكون العظيم. وبالتالي فإن قراءة كل حركة وسكون في هذا الكون، توجي إلى قارئها بشيء من العلم والحكمة فني كل شيء له آية تدل على أنه واحد. والجميل في هذا النوع من القراءة أنه مطلق المعنى، فالشمس تسطر لقارئ معنى الصفاء، ولقارئ

مستويات القراءة والكتابة  
للقراءة والكتابة صور متعددة، أجلها قراءة ما استودعه خالق هذا الكون في كونه من معارف ودلائل، فالإنسان والأفلاك والقارات والمحيطات والكائنات جميعها هي فصول في كتاب الكون العظيم. وبالتالي فإن قراءة كل حركة وسكون في هذا الكون، توجي إلى قارئها بشيء من العلم والحكمة فني كل شيء له آية تدل على أنه واحد. والجميل في هذا النوع من القراءة أنه مطلق المعنى، فالشمس تسطر لقارئ معنى الصفاء، ولقارئ

مستويات القراءة والكتابة  
للقراءة والكتابة صور متعددة، أجلها قراءة ما استودعه خالق هذا الكون في كونه من معارف ودلائل، فالإنسان والأفلاك والقارات والمحيطات والكائنات جميعها هي فصول في كتاب الكون العظيم. وبالتالي فإن قراءة كل حركة وسكون في هذا الكون، توجي إلى قارئها بشيء من العلم والحكمة فني كل شيء له آية تدل على أنه واحد. والجميل في هذا النوع من القراءة أنه مطلق المعنى، فالشمس تسطر لقارئ معنى الصفاء، ولقارئ

مستويات القراءة والكتابة  
للقراءة والكتابة صور متعددة، أجلها قراءة ما استودعه خالق هذا الكون في كونه من معارف ودلائل، فالإنسان والأفلاك والقارات والمحيطات والكائنات جميعها هي فصول في كتاب الكون العظيم. وبالتالي فإن قراءة كل حركة وسكون في هذا الكون، توجي إلى قارئها بشيء من العلم والحكمة فني كل شيء له آية تدل على أنه واحد. والجميل في هذا النوع من القراءة أنه مطلق المعنى، فالشمس تسطر لقارئ معنى الصفاء، ولقارئ

مستويات القراءة والكتابة  
للقراءة والكتابة صور متعددة، أجلها قراءة ما استودعه خالق هذا الكون في كونه من معارف ودلائل، فالإنسان والأفلاك والقارات والمحيطات والكائنات جميعها هي فصول في كتاب الكون العظيم. وبالتالي فإن قراءة كل حركة وسكون في هذا الكون، توجي إلى قارئها بشيء من العلم والحكمة فني كل شيء له آية تدل على أنه واحد. والجميل في هذا النوع من القراءة أنه مطلق المعنى، فالشمس تسطر لقارئ معنى الصفاء، ولقارئ

مستويات القراءة والكتابة  
للقراءة والكتابة صور متعددة، أجلها قراءة ما استودعه خالق هذا الكون في كونه من معارف ودلائل، فالإنسان والأفلاك والقارات والمحيطات والكائنات جميعها هي فصول في كتاب الكون العظيم. وبالتالي فإن قراءة كل حركة وسكون في هذا الكون، توجي إلى قارئها بشيء من العلم والحكمة فني كل شيء له آية تدل على أنه واحد. والجميل في هذا النوع من القراءة أنه مطلق المعنى، فالشمس تسطر لقارئ معنى الصفاء، ولقارئ

مستويات القراءة والكتابة  
للقراءة والكتابة صور متعددة، أجلها قراءة ما استودعه خالق هذا الكون في كونه من معارف ودلائل، فالإنسان والأفلاك والقارات والمحيطات والكائنات جميعها هي فصول في كتاب الكون العظيم. وبالتالي فإن قراءة كل حركة وسكون في هذا الكون، توجي إلى قارئها بشيء من العلم والحكمة فني كل شيء له آية تدل على أنه واحد. والجميل في هذا النوع من القراءة أنه مطلق المعنى، فالشمس تسطر لقارئ معنى الصفاء، ولقارئ

مستويات القراءة والكتابة  
للقراءة والكتابة صور متعددة، أجلها قراءة ما استودعه خالق هذا الكون في كونه من معارف ودلائل، فالإنسان والأفلاك والقارات والمحيطات والكائنات جميعها هي فصول في كتاب الكون العظيم. وبالتالي فإن قراءة كل حركة وسكون في هذا الكون، توجي إلى قارئها بشيء من العلم والحكمة فني كل شيء له آية تدل على أنه واحد. والجميل في هذا النوع من القراءة أنه مطلق المعنى، فالشمس تسطر لقارئ معنى الصفاء، ولقارئ

مستويات القراءة والكتابة  
للقراءة والكتابة صور متعددة، أجلها قراءة ما استودعه خالق هذا الكون في كونه من معارف ودلائل، فالإنسان والأفلاك والقارات والمحيطات والكائنات جميعها هي فصول في كتاب الكون العظيم. وبالتالي فإن قراءة كل حركة وسكون في هذا الكون، توجي إلى قارئها بشيء من العلم والحكمة فني كل شيء له آية تدل على أنه واحد. والجميل في هذا النوع من القراءة أنه مطلق المعنى، فالشمس تسطر لقارئ معنى الصفاء، ولقارئ

مستويات القراءة والكتابة  
للقراءة والكتابة صور متعددة، أجلها قراءة ما استودعه خالق هذا الكون في كونه من معارف ودلائل، فالإنسان والأفلاك والقارات والمحيطات والكائنات جميعها هي فصول في كتاب الكون العظيم. وبالتالي فإن قراءة كل حركة وسكون في هذا الكون، توجي إلى قارئها بشيء من العلم والحكمة فني كل شيء له آية تدل على أنه واحد. والجميل في هذا النوع من القراءة أنه مطلق المعنى، فالشمس تسطر لقارئ معنى الصفاء، ولقارئ



## النشر الذاتي ••• بديل الكتاب للوصول إلى القارئ دون دار النشر

لم يكن ممكناً في السابق أن تصل الكتب إلى القراء دون مرورها عبر بوابة دور النشر. لكن، ومع ظهور الكتب الإلكترونية وإمكانية تسويقها ذاتياً من طرف كتابها، أصبح ذلك ممكناً، بل وأصبحت هذه الكتب تلاقي رواجاً كبيراً.

إينا كورنر، كاتبة قصة ألمانية مبتدئة، حاولت إيصال أول قصة كتبها للقراء عبر الطرق التقليدية. أي من خلال إيجاد دار للنشر تتكفل بذلك. فبعد انتهائها من كتابة قصتها في بداية عام 2009، بعثت بمسودتها لأكثر من دار نشر للاطلاع عليها. لكن النتيجة كانت مخيبة للأمل. فبعد فترة انتظار طويلة، توصلت كورنر برسائل دور النشر التي رفضت التكفل بطبع قصتها.

وفي منتصف عام 2011، علمت كورنر بوجود إمكانية لنشر الكتب بطريقة ذاتية من خلال موقع أمازون (Amazon) الإلكتروني لبيع الكتب. فقامت بجمع المعلومات اللازمة، وصممت، بمساعدة أحد أقرانها، غلافًا لقصتها. ثم قامت بتحميل مخطوطة القصة ذات البعد العاطفي الخيالي، والتي اختارت لها عنوان (ضوء القمر) (MondLichtSaga). وكانت هذه الخطوة ناجحة بكل المقاييس، كما توضح الكاتبة إينا كورنر بقولها: «بعد مرور 14 يوماً من ذلك، كنت قد بعثت 45 نسخة. وكنت فخوراً بذلك». لكن الانطلاقة الحقيقية جاءت مع قدوم فترة التسوق التي تسبق أعياد الميلاد. حيث بيعت حوالي 1500 نسخة من قصة (ضوء القمر).

### النجاح بفضل شبكة الإنترنت

في السابق، كان يلزم التوفر على كثير من المال لطباعة الكتب. أما الآن، فتكفي بعض النقرات على شبكة الإنترنت لإضافة كتاب إلكتروني (E-Book) جديد إلى قائمة الكتب المتداولة إلكترونياً. كما يمكن للقراء الحصول على النسخة المطبوعة لكل كتاب إلكتروني بحسب الطلب. ولا تعني سهولة النشر التي أصبحت في متناول الجميع أن سوق القراءة قد أغرقت بالأدب عالي الجودة. لكن ومع ذلك، فإن جودة الكتب التي تنشر ذاتياً في تصاعد مستمر. وهو ما ينطبق أيضاً على



الكاتبة إينا كورنر صاحبة قصة (ضوء القمر) التي قامت بنشرها عبر موقع أمازون بطريقة ذاتية



موقع نيو بوكس الإلكتروني للنشر الذاتي الذي يتيح للكتاب عرض كتبهم

تعرف النجاح بالوصول إلى القراء عن طريق النشر الذاتي، مثل القصص الخيالية والروايات البوليسية التي تدخل ضمن الأدب الترفيهي الذي يعرف استهلاكاً كبيراً وسريعاً في نفس الوقت. وبغض النظر عما إذا كان الكتاب متعاقدون مع دور نشر تتكفل بنشر كتبهم أم يقومون بذلك بصفة ذاتية عبر المواقع الإلكترونية، فإن الكتاب مضطرون في الوقت الحالي لتسويق أنفسهم بأنفسهم. لذلك يتخذ عدداً كبيراً منهم من مواقع التواصل الاجتماعي في شبكة الإنترنت وسيلة لذلك. وهو أمر يبقى أساسياً لتعريف الكتاب بأنفسهم وكتاباتهم وسط زخم الأعمال الأدبية المطروحة في السوق.

### تواصل الكتاب مع القراء

ورغم كل الإمكانيات التي تتيحها فرص النشر الذاتي، تبقى دور النشر هي العنوان الأول بالنسبة لكثير من الكتاب. ويرجع ذلك إلى أن بعض الأنواع الأدبية دون غيرها هي التي



## الطريق في استهلاك ••• المعلومات

استناداً إلى الصورة الواسعة لمجريات الأمور على الفضاء الافتراضي، من المستطاع التفكير جدياً بمجموعة واسعة من الخيارات في التعامل معه.

إذ يبدو شبه محتم بناء شبكات إعلامية متكاملة الأهداف، بل وفق صورة إعلامية واضحة لكل دولة ومجتمع. وترتكز هذه الشبكات في الدرجة الأولى على الصدقية والشفافية المعلوماتية، مع ملاحظة أن الأمن الإعلامي والأمن المعلوماتي يشكلان هدفين أساسيين في الفضاء الافتراضي.

في نفس مُشابهه، لا بد من تحليل شبكات التواصل الاجتماعي لرصد المشكلات التي تتداولها، ولصدّ الهجمات الإعلامية في الفضاء الشبكي، وتبديد الإشاعات المفرضة. واستطراداً، لا بد من ولوج العالم الرقمي عبر مكتبات رقمية ناشطة وقواعد بيانات موثوقة، مع التركيز أيضاً على إعادة صوغ وظيفة الإعلام بما يجعله تفاعلياً مع الجمهور، وهو أمر أساسي لمن يسعى إلى فهم المطالب الحقيقية للناس.

شبكات «متشابكة»

هناك معطى من الضروري التعمق في فهمه، يتمثل في أن الشبكات الإعلامية الرقمية تساهم في ظهور شبكات فرعية ربما تكون فائقة النشاط، تعمل على مستوى الأفراد أو الأحياء أو الشوارع أو التجمعات المهنية. ويؤدي ذلك إلى بناء شبكات أضيق فأضيق للتواصل مستقبلاً، ما يضع عبئاً ثقيلاً على جهود الإعلام العام في كسب الجمهور.

والأرجح أن هنالك ضرورة فعلية لمحو الأمية المعلوماتية، ما يعني ببساطة إعطاء الناس القدرة على تحديد المعلومات التي يمكن استخدامها بشكل فعال في حل قضية أو مشكلة.

فمن الواضح أن توافر كميات هائلة من المعلومات عبر الإنترنت، يعقد مسألة الاستخدام الفعال للمعلومات، بل أنه حتى العثور على المعلومات المطلوبة لمواجهة مسألة معينة، يصبح تحدياً صعباً.

وإلى جانب ذلك، يجب أن يكون لدى المستهلك المعلومات وعي معلوماتي متقدم، لأن ترشيد المواد المتدفقة عبر الانترنت وتقييمها وتدقيقها، تعتبر من التحديات الكبرى في المجتمعات المعاصرة.

## (الديموقراطية الآن) و (ويكي)

الإنترنت، فإنها تمثل نموذجاً عن شيء يستحيل صنعه عبر أساليب الإعلام التقليدية.

تتحدى (ويكيبيديا) مجموعة كبيرة من الافتراضات الشائعة، بالأحرى البدايات التي كانت راسخة قبل عصر الإنترنت. وعلى رغم كل شيء، يمكن للمرء أن يتصور المرء أنه إذا استطاع الإنسان كتابة شيء ما على شبكة ال (ويب)، فلربما تعرّض للتدمير على أيدي مخربين إلكترونيين باتت الإنترنت تنقص بهم. ولا شك في أن الحروب المتهبة حول محتوى المقالات، بمعنى الصراعات التي لا تنتهي على الملكية الفكرية للنصوص، كضيلة بأن تحبط حتى أكثر النيات إخلاصاً.

وثمة من يفكر بأشياء (بديهية) من نوع أن المقالات التي يكتبها هواة هي هراء خالص! ولكن الطبيعة المفتوحة لموقع (ويكيبيديا) برهنت على أنها أعظم مواردها على الإطلاق، بل برزت كمصدر لسبب من المواد التي تتمتع بالصدقية.

وبصورة عامة، تميل مقالات موسوعة (ويكيبيديا) إلى استخدام نبرة محايدة، وعندما يكون الموضوع مثيراً للجدل، تشرح وجهات النظر المختلفة، إضافة إلى مجموعة من الحقائق الأساسية. وعندما يكون بوسع أي شخص تعديل ما كُتبَ تَوّاً على الموقع، تصبح هذه النزاهة أمراً جوهرياً.

ويستمد موقع (ويكيبيديا) القوة من متطوعين يتعاملون معه، وهم يرصدون مواده، ويعملون على مكافحة أعمال التخريب الإلكتروني. وعندما يعلم المخربون أن شخصاً ما يصلح التلف في غضون دقائق معدودات، ويحول ذلك دون رؤية العالم لما أراده المخربون، يميل الأخيرون للشعور باليأس كما يعملون غالباً إلى الانتقال للعمل على أشياء تكون أكثر ضعفاً من (ويكيبيديا).

ولا يعني ذلك القول إنه لا تحدث اختلافات في الرأي، أو أن العمل في (ويكيبيديا) يسير على أكمل وجه. لكن، في أغلب الأحوال، يحاول محرّرون في (ويكيبيديا) توجيه المنازعات على مسار يحقق نتيجة أفضل في نهاية الأمر. وهناك صفحات تتضمن مناقشات لمحتويات (ويكيبيديا) تظهر فيها أحياناً بعض الآراء (المفرضة) حول ما ينبغي أن يتضمنه المحتوى. وفي النهاية، فإنه حتى الخصوم يمكن أن يجدوا أرضية مشتركة عبر احتواء الاختلافات والاعتراف بها، الأمر الذي يكسب الموسوعة اتساعاً يكبر باستمرار. في المقابل، ثمة نقاشات يصعب في النهاية، تهدئتها والتحكّم بها.

تعتبر العملية التحريرية جزءاً رئيسياً من عمل مؤسسة (الديموقراطية الآن) Democracy Now، وهي محطة إذاعية يسندها موقع إلكتروني، تملك ميولاً يسارية، وتلاقي رعاية من شبكة (باسيفيكا) الإذاعية في الولايات المتحدة. وحققت رئيسة المؤسسة إيمي غودمان وزملاؤها، قفزات فنية وابتكارات في الإعلام الجديد، عبر إنتاجهم مواد إعلامية ذات تأثير حقيقي. وفي مثال معروف، تعرّضت غودمان للضرب على أيدي عناصر أمنية تابعة للحكومة الإندونيسية، بل رُحلت من جزر (تيمور الشرقية) أثناء تطويقها نضال التيموريين من أجل الاستقلال.

وصُنفت تطعية غودمان باعتبارها (الأفضل) بين التغطيات الصحافية للصراع في جزر (تيمور الشرقية). ولم يكن إخراج المادة الصحافية من إندونيسيا أمراً سهلاً. ففي مرحلة ما، استعانت غودمان بركاب عاديين يستقلون طائرات متجهة إلى أستراليا، وأعطتهم أسطوانات مدمجة (سي دي) تتضمن أشرطة فيديو مفضولة. وبعدها، عمد مالك مقهى إنترنت أسترالي إلى إرسال مجموعات أخرى من أشرطة الفيديو، إلى مقر «الديموقراطية الآن» في نيويورك.

ما زالت هذه المؤسسة تعتمد على الأشكال التقليدية للاتصال، لكنها في الطريق لأن تصبح «حدوداً مشتركة بين عوالم شبكة ال (ويب) والإعلام العام التقليدي»، وفق كلمات غودمان.

### الجمهور مؤلفاً ومحرراً

ثمة تجربة أخرى مهمة، تعتمد على مفهوم شبكي صرف. فعلى الإنترنت، يشيع مفهوم (ويكي) Wiki وصفاً لعملية جمع بيانات إلكترونية لها صبغة ديموقراطية عميقة.

وفي شباط/فبراير 2004 نشر موقع (ويكيبيديا) Wikipedia، وهو مكرّس لموسوعة رقمية مفتوحة ومجانية تعتمد على مساهمات مباشرة من الجمهور في محتوياتها، مقالها الـ 500 ألف، وكان من تأليف الجمهور. وحاضراً، تملك الموسوعة ما يزيد على مليون مقال باللغة الإنكليزية وحدها.

تعتبر موسوعة (ويكيبيديا) أحد أكثر التطورات سحراً في العصر الرقمي. وفلم تكذب تبلغ عامها الثالث، حتى أضحت مصدراً قيماً، إضافة لكونها نموذجاً للكيفية التي يمكن بها للقاعدة الشعبية في عالم الإنترنت المترابط، أن تتجزأ أشياء غير عادية. من المستطاع اعتبار (ويكيبيديا) نموذجاً للإعلام المستند إلى المشاركة، وبمقدار ما تمثل امتداداً طبيعياً لظاهرة